"الرواية الحائزة على جائزة ماجنيزيا ليترا للرواية عام ٢٠١٥"

احذري يا آنّا

ماريك شينديلكا

ترجمة: د. عمرو شطوري

روايات مترجمة







احذري يا آنـَّا

احذري يا آنَّا

تأليف: ماريك شينديلكا

ترجمة: د. عمرو شطوري

تحرير: هدى فضل

مراجعة لُغويَّة: محمد حامد بكر

الطبعة الأولى: يناير 2019

رقم الإيداع: 2018/27138

الترقيم الدولي: 9789773194765

الغلاف: جورج لطيف



© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع قصر العيني 11451 - - القاهرة

ت 27954529 - 27921943 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

Copyright © 2014 Marek Šindelka

The original Czech edition was published in 2014 under the title *Mapa Anny*

ماريك شينديلكا

احذري يا آنـّا

رواية من التشيك

ترجمها عن التشيكية: **د. عمرو شطوري**



This translation was supported by the Ministry of Culture

of the Czech Republic



بطاقة فهرسة

شينديلكا، عمرو

احذري يا آنَّا: رواية من التشيك/ تأليف ماريك شينديلكا.

ترجمة: د. عمرو شطوري - القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018، ص؛ سم.

تدمك 9789773194765

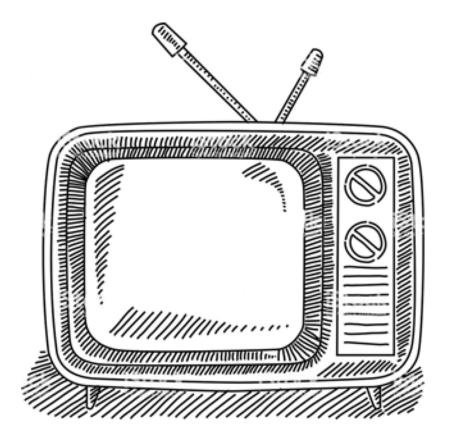
1- القصص التشيكية

أ- شطوري، عمرو (مترجم)

ب- العنوان 891.863


Liberec Region
Ústí Region
Hradec Králové Region
Karlovy Vary Region
Prague
Pardubice Region
Central Bohemia Region
Moravia-Silesia Region
P zeň Region
Olomouc Region
Vysočina Region
Zl n Region
South Bohemia Region
South Moravia Region

ويبدأ العرض



بدأ هذا قبل العرض مباشرةً. خفقان في القلـب، تعـرُّق في الكفَّـين، وجفـاف في الحلق. أجلسُ مُرتديًا الحرير، وحذاءً من الجلد المقلوب، تبرز منه بعض الخيـوط. أجلس على شيء يُشبه مقعدًا بذراعين، جعلني أشعر برغبة في التَّقيُّؤ. مكان يُشبه غرفة تغيير الملابس، غرفة الماكياج، وهذه المـرآة، أنـتم تعرفـون ذلـك، هـذه التـي تُحيط بها المصابيح من كل جانب؛ أنا أكذب، لا توجد هنا مصابيح، لحُسن الحظ، ولا إضاءة. تقريبًا أجلس في الظلام. قابع في هذه البذلـة التـي تفـوح منهـا رائحـة الأشياء الجديدة، أجلس في هذا القماش المُتيبِّس، في جلدي. في جلدي الذي تحـوَّل إلى اللون الأحمـر كأنـه مُتسلِّخ. وشـعري تفـوح منـه رائحـة الـشامبو. وأظـافري المقصوصة التي نظَّفتُها بعناية من الجلد المُحيط بها، والذي ينمو بشكل مـستمر. لماذا توجد في الجسد أشياءُ تنمـو باسـتمرار؟ لا بـد أن تعتنـي دائمًـا بـشيء مـا في جـسدك. إن الإنـسان يُمكـن أن يُـصاب بـالجنون مـن هـذا، فعليـك باسـتمرار أن تُطعمه، وتُريحه، وتغسِله، وتُثقفه، يـا إلهـي. الجـسد طفـل الـصغير. هـو شيء لا يعرف الاعتماد على النفس بصورة كبيرة. ثـلاث دقـائق وخمـس وعـشرون ثانيـة، سيبدأ الآن. بدأت الموسيقى في العزف، إنهم يُصفِّقون. يا له مـن شيء بـشع. هـل عانيتم من قبل من رهبة مواجهة الجمهـور؟ يُقـال إن التَّـنفُّس بعُمـق يُـساعد في مثل هذه المواقف. أخذتُ أتـنفَّس بعمـق، لكـن، بعـد قليـل سأُصـاب بنزيـف في المخ، وسـأغيب عـن الـوعي. بـدأتُ أرى أمـام عينـيَّ نقاطًـا سـوداءَ وبيـضاءَ، إنـه

التشويش – هل تعرفون التشويش؟ كان يحدث في التلفزيونات القديمة.. إنه هذا الضباب الذي يُسمع طنينه بين البرامج المختلفة، ما حدث لي يُشبه هذا وكأن الجسد قد ضُبِطَ على قناة خاطئة. لا بد أن هناك شيئًا في الأعصاب. طريق سيئ.. فرقعة.. رائحة الكهرباء تزكم الأنف، وشرر يتطاير في الدماغ، وظلام. بدأت شفتي السُّفلى ترتعش، ثم النصف الأيسر من الوجه بالكامل، ثم وصلت هذه الرَّعشة إلى الذراع، ثم البطن. بدأ باطن أصابعي يتحوَّل إلى اللون الفسفوري. هل تشعرون أنتم أيضًا بذلك؟ هل تفهمونني؟

قالت خبيرة التجميل التي ظهرت فجأةً من وميض الأضواء.. تحسُّبًا لأي شيء سنأخذ الأنف أيضًا. أضاءت المكان. فكأن ضوءًا سائلًا بدأ يجري في الأنبوب المُثبَّت عند السقف. أخذت تضع مسحوق التجميل على وجهي.

كان رأسي يهتزُّ، فسألتها:

- هل تشعرين بذلك؟

قالت السيدة غير مُدركة لما أقوله:

- ماذا؟

قلت لها:

- الكهرباء.

أخذتُ أوضِّح لها أن لساني يـرتعش، وأني لا أسـتطيع الكـلام، لكنهـا كانـت قـد انصرفت منذ وقت طويل.

وفي فمي، قُمت بتنظيف أسناني بعناية، الآن أريح عليها لساني، ألمس به داخل الخدَّين. هل اللسان من الأعضاء الداخلية في الجسد؟ أم لا؟ من بوسعه أن يعرف ذلك. كل شيء جاف. ثلاث دقائق. إنهم يُصفِّقون. أين توقفَّنا؟ اللسان! أتعرفون ما اللسان؟ إنه هذا العضو الداخلي الذي يُشكِّل الكلمات، هذا الشيء المثـير للقـرف، أتفهمون؟ الكلمات. لماذا تنشأ الكلـمات في كتلـة الجـسد، مـن تحريـك العـضلة؟ دقيقتان وخمسون ثانية. هل سبق وعانيتم من رهبة مواجهة الجمهور؟ يُقـال إن التفكير في شيء جميل يُـساعدك عـلى الـتَّخلُّص منهـا، لكننـي أشـعر بـأن أحـشائي الداخليـة تتحـرَّك في مكانهـا، وخاصـة القلـب الـذي أشـعر وكأنـه يُـضاجع عـضوًا آخـرَ. إن حركـة القلـب شيء مُـزعج، ألا تعتقـدون ذلـك؟ لا يُمكـن إيقافهـا أبـدًا. دقيقتان واثنتان وعشرون ثانيـة. إنهـا النهايـة. إنـه شيء مُهـين جـدًّا، هـذه الرهبة من مواجهة الجمهور. تشعر كـأن أحـدًا قـد انتزعـك مـن جـسدك، أتفهمون؟ كأنه أمـسك بـك وأنـت تُمـارس شـيئًا سـيئًا، أثنـاء معاناتـك مـن الإقامة في جسدك.. تخرج رافعًا يديك فوق رأسك. كل ما تقوله سيُـستخدم ضدك.. يا لها من جملـة ظريفـة. مـن فـضلكم، هـل يُمكـنكم أن توضِّـحوا

لي من الذي علَّمنا هذا؟ من الذي سلبنا الإقامة المريحة في كتلة الجسد؟ أنا لا أعرف ما الذي يمكنني أن أدفعه حتى أتمكَّن من الشعور بالراحة في جسدي؛ مثلما أشعر وأنا في غرفة المعيشة. لقد ظهر الإله منذ مليارات السنين، ثم قام بعد ذلك بخلق العالم، والأشياء الأخرى، وكل هذا مُثبتٌ علميًّا، ولكن ما يظل غامضًا هو من الذي اخترع الروح. هل لاحظتم أن كلمة "الروح" نشأت في كتلة الجسد، من تحريك العضلة؟

هل سبق وعانيتم من رهبة مواجهة الجمهور؟ دقيقة وثمانٍ وخمسون ثانية. يُقال إن التركيز على التَّنفُّس يُساعد على التَّخلُّص منها. غير أن تناوب النفس دخولًا وخروجًا هو شيء مُقزز بصورة ليس لها مثيل. إن النَّفس يُحرِّض الرئتين. فمجرد التفكير فيهما يُشكِّل رعبًا حقيقيًا. فهذا الانبساط والانقباض ليسا بالشيء الصحي تمامًا. لا أعرف ما معلوماتكم عن علم الأحياء، لكن معلوماتي أنا فهي غزيرة، فأنا أقرأ National Geographic. الرئتان، وفقًا لعلماء جامعة أوكلاهوما، مُجعَّدتان تمامًا، بهما ما يُشبه الطيَّات. الخبراء يؤكدون ذلك، أتفهمونني؟ ولو قام أحد بشدها فستُصبح في حجم ملعب لكرة قدم. أصبت بحالة من الدُّوار التام بمجرد تخيُّلي أن هذه المساحات الهائلة موجودة في داخل جسدي. يجب ألا تندهشوا مما أقوله. دقيقة وخمس وأربعون ثانية. فأنا مثل أي إنسان ذكي، أميلُ إلى العصابية، والوسواس المرضي، والرغبة في الدِّقَّة.

هل سبق وأخبرتكم أن هناك امرأة تجلس معي هنا؟ بشكل أدق فتاة. تداعبني. ترى أنني لستُ على ما يُرام، فتداعبني. تمسح على ظهر يدي، وتجتهدُ لتصمت. كأني أجلس في قلب كومة من النباتات الشَّائكة يا أصدقائي. تلك اللمسات تشبه الأعشاب الضارة. لقد أوشكت على بلوغ الأربعين، بينما تبلغ هي سبعة عشر عامًا وثلاثة أرباع العام (ويومين). إن علاقتنا قائمة على أسس مادية عميقة، لكن هذا لم يعد مناسبًا إلى حدٍّ ما، فنحن تقريبًا لا نتحدث معًا، وعندما نتحدث لا نسمع ما نقوله، لأننا عاشقتان، أتفهمون؟ لكن دعنا الآن نُنحِ المشاعر جانبًا. فلمساتها تُحرِّض على جلدي. يا له من أمر مزعج للغاية. لا أعرف إذا كنتم قد لاحظتهم هذا من قبل، فالجلد ممتلئ بالأعصاب مثل لحم ضلع الخنزير. أنا شخص يحرص على أخذ قسط من الثقافة في علم الأحياء بشكل منتظم، وقد أثبتت الأبحاث والتجارب التي قام بها علماء من جامعة "موكاتشيفو" أنه يوجد في جسد الإنسان كمٌّ من الأعصاب لو تم فردها طوليًا في شكل حبل، لأمكن لهذا الحبل أن يلفَّ الكرة الأرضية مرَّتين ونصف المرَّة. تخيَّلوا حجم القدرات الموجودة في جسم الإنسان.

أُغلق عينيَّ لأنني لستُ على ما يُرام. أنهار أكثر وأكثر في المقعد الشائك. في الحذاء الجلدي. رأسي يدور كأني حقًّا ألُفُّ حول الكوكب كله. دقيقة وثلاثون ثانية. إن أميرتي الجميلة تمسح على يدي، بينما

أفكِّر أنا في ورق الصنفرة، وفي منشار بأسنان رقيقة جدًّا، فالأعـصاب تحـت الجلـد بيضاء كعيدان المكرونة الإسباجيتي. اشتدَّ التصفيق.

كل شيء سينقلبُ رأسًا على عقب. إنه الرُّعب من الآخرين، الرُّعب من النـاس في كامل عُريهم، القاعة مليئة بالأعيُن، إنهم يُصفِّقون، أتسمعون؟ عشرة آلاف عـين مُصوَّبة إليك كالمدافع الرشاشة، مدافع بيولوجية تعمل بطريقة عكـسية، مكـانس كهربائية تشفط الصور. ثم تقوم بتجميعك في رؤوس آلاف البشر، الذين يُدخلونك إلى جهـازهم العـصبي، إلى ذاكـرتهم. والـذاكرة كـما اكتـشف العلـماء في جامعـة "هورني بلانا" بالقرب من مدينة "ماريانسا لازنيه" هي عبـارة عـن مـواد كيماويـة وكهرباء. أنا لا أريدُ أن أدخل إلى رؤوس وأجساد وأعصاب هؤلاء الجـيران. لا أريـد أن أصبح ولو حتى جزءًا من عملياتهم الفسيولوجية، لأنني ومن مكاني هذا لا أرى فرقًا واحدًا بين الذاكرة والهضم. هضم الـصور، والإيمـاءات، والأفعـال الاجتماعيـة. دقيقة وثلاث وعشرون ثانية. أجلس مثل الكلبة "لايكا" في المسبار الفضائي، مباشرة قبل أن يقوم الناس الطيبون بإطلاق تلك الكلبة الـساذجة وإلى الأبـد إلى غياهـب الكون المُتجمِّدة. أنا في وضع أسوأ منها، أيها السيدات والسادة، فأنا أعرف جيدًا ما القادم، لم أعد أُصدق أحدًا، ولن أفعل هذا أبدًا.

أحد أصدقائي المقربين يعمل كاتبًا، لكن قصصه تتعارض مع أفكاره. بفضله عرفت معنى رهبة مواجهة الجمهور. الرهبة هي الرُّعب من قصة حياتك الخاصة. هل حاولت يومًا أن تخرج إلى الناس، وتعرض عليهم حياتك كأنك تستعرض أمامهم جهازك العضلي المُشحَّم بالزيت؟ دائمًا ما كنتُ أتعاطف مع لاعبي كمال الأجسام؛ لأن كل ما فيهم مرئي بوضوح. تشعر براحة لا تُوصف عندما ترى طموحات أشخاص معينين مُنسقة أمامك بهذا الشكل الجميل. كأنها عند الجزار. أنا مستعدٌ لدفع كثير مُقابل ذلك! إنهم أناس سعداء.. هم ليسوا مضطرين للنطق بكلمة واحدة، ليس عليهم أن يشرحوا لأحد شيئًا، كلهم يعرفون وجهتهم في هذه الوليمة من الود والصدق والمثابرة، وسطح أجسادهم اللامع هو من يقوم على خدمتهم.

أمَّا صديقي الكاتب فهو يُمثِّل حالة مختلفة. هو لاعب كمال أجسام مُنعكس، فنان تنمو طموحاته إلى الداخل (لكن عضلاته لا تقل كثيرًا عنها)، يكتشف الإنسان هذا بعد سنوات من العمل الدءوب في مجال الآثار. مثله مثل كل الأذكياء يقولون كثيرًا من الأشياء التي لا يُصدقونها. صحيح أنه يحكي القصص، ولكن هذه القصص تفسَد منه. فقد بدأت منذ فترة معينة تنبت الأشواك في كل شيء يُمكن أن يتضمن إشارة إلى وجود حدث معين. إن هذا نوع من الاحتيال، فنادرًا ما يقوم أحد باستدعاء سبَّاك لإصلاح بالوعة الصرف، وهو يعلم أن

مواسيره مُتصدعة، لكن صديقي هـذا مـا زال مـستمرًّا حتـى الآن لأنـه يُـتقن فـن تصوير الأحداث.

دقيقة وسبع عـشرة ثانيـة. لا أعـرف إن كنـت قـد أشرت مـن قبـل إلى عمـلي كمقدِّم للبرامج التلفزيونيـة أم لا. أو بمعنـى أدقَّ فنـان هـزلي. إن هـذه الوظيفـة مفيدة للغاية، ألا تعتقدون ذلك؟ وقليلون هم من يـستمرون بهـا. أن تظـل لمـدة خمسين دقيقة - إذا استبعدنا الإعلانات - محافظًا على عضلة الفكاهـة مـشدودة في وجهك. هو تقريبًا نوع من الأداء الغامض - امنعوا الضحك - لقد توقفت منـذ فترة معينة عن النوم، وأصبحت أحتسي كثيرًا من القهوة كل يوم، حتـى إن بيـاض عينيَّ بدأ يتحوَّل إلى اللون الأسود. قليل من الناس من يعرف ما الذي يُمكن أن يمر به الإنسان في حياته. ما الذي يُمكن للجسد أن يعتاد عليـه عنـدما لا يكـون لديـه خيار آخر؛ أخذت أُمارس تدريبات اليوجا أربعًـا وعـشرين سـاعة في اليـوم. كنـت أمارسها في داخلي فقط، فقد صار عقلي ملفوفًا كزهـرة اللـوتس، وأصـبحت قـاب قوسين أو أدنى من "التنوير" الكلي، فعندما كنتُ أعود إلى المنزل ثمـلًا في الخامـسة صباحًا، كانت عيناي تُضيئان ككشافات ملعب لكرة القدم، تتجمع حولهـا سـحابة من الحشرات الطائرة.

دقيقة واحدة بالضبط. سمحتُ لنفـسي بـأن أحلِّـق قلـيلًا بعيـدًا. فكـل شـخص، يـا أصـدقائي، لا بـد أن يبـدأ بطريقـة مـا. فأنـا عـلى سـبيل المثـال

كنت أعمل لفترة بائعًا جوَّالًا. كنت أتجول في الريف، وكان الفلاحون المتعجبون يدفعون لي المال لمجرد أني أُريهم الطريقة التي يعمل بها المغناطيس. كان هذا منذ فترة طويلة جدًّا. وكذلك صديقي الكاتب، فقد بدأ حياته راويًا للحكايات، أو فنَّانًا هزليًّا من وجهة نظره، لكن وكما أخبرتكم بدأت حكاياته تفسد. فلنقلها صراحة، إن كل شخص ما زال لديه قليل من العقل لن يكون قادرًا على ابتكار حكايات جديدة. فالناس يريدون باستمرار حكايات شخصية جديدة، فهناك في كل مكان تجلس عصابات من مُدمني السرد، من مصاصي الدماء الذين يعضُّ كل منهم الآخر لينفذ إلى مصائره الحياتية، ألم تشعروا بعد بالقرف من ذلك؟

احكِ، اشرح، اعرض علينا الخارطة، قدِّم لنا حسابًا زمنيًّا عن الفترة التي عاشها جسدك في هذا العالم البائس. انظر.. إن حياتك تنمو، هي نوع من النمو المستمر، هي الطريق إلى النجوم. كانوا يتدرَّبون تدريبًا شاقًّا على هذا الفن عندما كانوا أطفالًا صغارًا أغبياءً. لقد رأيت هذا بعيني. أناشد كل الأطفال في مرحلة قبل الولادة، الذين يستمعون لي الآن: لا تثقوا بأحد. لا تأتوا إلى هنا.

أين توقفنا؟ هل عانيتم من قبل من رهبة مواجهة الجمهور؟ أنا لم أتخلَّص منها أبدًا، وفي الحقيقة حتى لم أسعَ إلى ذلك مُطلقًا، إنها شيء يُشبه المُخدر؛ لا أعرف إلى أي مدى أنتم متقدمون في فهم السادية

الماسوشية، فأنا معرفتي بها عابرة، لكن هذا نوع مـن الميكروماسوشـية. نـوع مـن السعادة الراقية تنتج عن الشعور بالقلق والدُّونيَّة، ربما لـستُ مـضطرًا أن أوضـح لكم هذا بشكل أكبر. وفي نهايـة العـرض لا يُمكـنكم أن تتخيَّلـوا مـا الـذي يحـدث عندما تُغادرون المسرح، وقد التهمتكم آلاف الأزواج مـن الأعـين، وقـد تمـدَّدتُم في آلاف الأجهـزة العـصبية التـي لا تعرفونهـا. إنـه الـوعي الجمعـي أيتهـا الـسيدات والسادة. أن تأخذ حمَّامًا في العقل الكوني. فأنا أُغادر المسرح كأني أقف على ركـائز معدنية، لا أرى شيئًا. لا أسمع شيئًا. أتَّكئ على الجدران المطلية. أوقـعُ عـلى شـيئًا ما. أُحرِّك وجهي بطريقة مـا، وأحـاول أن أُشـكِّله لأصـل بـه إلى تعبـيرات مقبولـة. أبتسم، بينما في مكان ما من فمي.. لساني وشفتيَّ. بمساعدة هاتين القطعتـين مـن اللحم أُحاولُ تشكيل الهواء، والغريب أن الناس يفهمون هذا الهـواء. لا أعـرف إن كنتم قد سمعتم هذا من قبل أم لا، لكن الإنسان لديه رغبة كبـيرة في التكـاثر، في التكرار، لكن دعنا الآن نُنحِّ الجسد جانبًـا، فهـذا الأمـر يفهمـه حتـى الأغبيـاء، أنـا أتحدث الآن عـن تكـاثر الـروح، فـلا توجـد متعـة أكـبر مـن إدراكـك أن صـورتك، ومشاعرك، وأفكارك، وكلماتـك تُنـسخ في عقـول أنـاس غربـاء عنـك. أعـرف أنكـم تفهمون ذلك.

اثنتان وخمسون ثانية. وقفـتُ بـبطء، ومـسحتُ بنعومـة عـلى يـاقتيَّ السُّترة، بينما تقوم صـغيرتي بالمـسح بيـدها عـلى جـزء آخـر مـن ملابـسي.

هل تعرفون ما الرهبة؟ سأخبركم بذلك: الرهبة هي العصا التي نغزُّ بها الحيوان القابع في زاوية من هذا الجسد النظيف الممتلئ بالرُّعب والفزع.

توضح هذا الآنسة المُدرِّسة، وتقول: "لا تتزاحموا". ثم تدفع هذه العصا الطويلة ناحية الحيوان، الذي يُصاب بالرُّعب، ويُكوِّر نفسه كالمشلول ليحمي بطنه وأعضاءه. إن الرهبة هي عرض قتالي. هي عرض الموت. إن الرهبة تقف هناك أمامك.. في ظلام صالة السينما الدامس، تُضيء كلمة "النهاية". لا أعرف متى قُمتم آخر مرَّة بذبح شيء ما، فهذا حقيقة ما يحدث عند القيام بذلك، إن هذا المخلوق يقوم في اللحظة الأخيرة قبل الموت بتكوير جسده، ويتحول إلى جنين، ويعود إلى العدم بالطريقة نفسها التي جاء بها. إنه مشهد غير محبب، كأنك تشهد عملية تطور تحدث أمام عينيك، ولكن في الاتجاه العكسي.

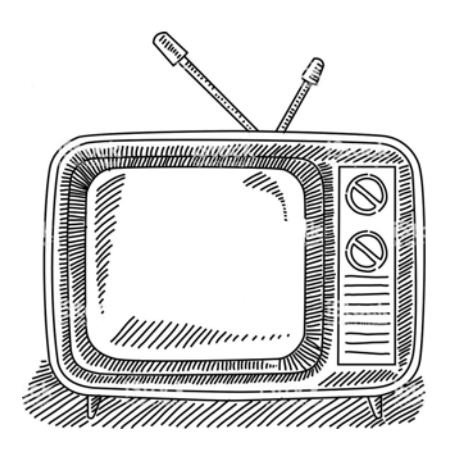
ذهبت إلى المرآة. رأيتُ وجهي الشاحب، وقطرات من العرق على جبهتي. من الذي علَّمنا هذا؟ من؟ عقدتُ قبضتي المرتعشة لكي أضربها في بطني. أضرب بكل قوتي في أي مكان تصل إليه ذراعي، لكن هناك من أمسك بيدي، قال المصور: "ممنوع الضرب في الوجه، وبدأ شخص ما في وضع المساحيق على أنفي، ومسح جبهتي. خمس عشرة ثانية. أشاروا لي، أومأوا لي بأن الوقت قد حان. تعالَ".

أَذْهَبُ، أتنفسُ. الأعين في كل مكان حولي. تصفيق حاد. فرقعة كبيرة. كشَّافات الأضواء؛ قليل من الناس هو من يُدرك حجم ما يتعرض له

الإنسان، ما يعتاد عليه؛ وطالما لا أملك الاختيار، فإن عقلي سيصبح زهرة لـوتس، لقـد صرت قريبًا من أن أضيء كليـة. صرتُ قريبًـا، منـذ وقـت قريـب توصَّـل علـماء كـل جامعات العـالم إلى أن الحديـد الموجـود في دمنـا مـصدره النجـوم المنـدثرة. النجـوم العظيمة المنفجرة. لديهم كل الحـق يـا أصـدقائي، فهنـاك علاقـة مبـاشرة بيننـا وبـين النجوم، ففي عروقي يدور الكون كله؛ أدخل إلى هذا الوهج المُبهر. أدخل إلى الضوء.

أنا قادم إليكم.

وهنا يبدأ العرض.



المَحَارَة



كانت "سيلفيا" تشعر بشيئين؛ بحركة جنينها ذي الأشهر الخمسة في أحشائها، وبرائحة العطر. وضعت الكتالوج الذي يعجُّ بصور لأناس يفوق جمالهم جمال البشر وهم يتعانقون على شاطئ البحر. كثير جدًّا من الوجوه، والأسنان اللامعة واللثة. نظرت إلى "مارتين". كان يجلس بجوارها، ويتصفح كتيبًا، به أناس آخرون مبتسمون يرتدون السُّترات الواقية، ويغادرون بشكل منظم جسم الطائرة المُشتعل، والآخذ في الغرق أسفل سطح البحر. هناك سيدتان ترتديان زيًّا رسميًّا تقفان في الممر، وتقومان بتقديم عرضهما المسرحي الحزين لمئة من الوجوه الشاحبة.. أخرجتا من حقائب قديمة رباطًا وخرطومًا وقناع الأكسجين. وأخذتا بتعب تفردان وتثنيان ذراعيهما، وتُشيران إلى الأبواب. بدتا كراقصتين مستبعدتين من أغنية مصورة لإحدى فرق الديسكو المندثرة. كان المسافرون يراقبون حركاتهما بتحجُّر. بعضهم كان يركب الطائرة للمرَّة الأولى. يحلم بالاستمتاع برحلته التي حجزها في تخفيضات نهاية فصل الصيف.. وعلى الرغم مما أصابهم من رعب فإنهم كانوا يتطلعون إلى الاستمتاع بالبحر.

لم تكن "سيلفيا" تُفكِّر في هذه الخطورة، ولكنها تفكِّر في العطر الذي اشتراه لها "مارتين" في صالة المطار كهدية صغيرة يفاجئها بها. كانت رائحة العطر قوية جدًّا وثقيلة. ظلَّت جاثمة على ذراعي "سيلفيا" كأنها عارضة خشبية من نوع غريب من الأخشاب. مثل ذراع "مارتين" القوية، والتي لا تستطيع الفراع منها عندما تضمها

بتشنُّج. إنها تشعر بطفلها الذي كان يركلها عبر جدار بطنها الرقيق. كانت تشم رائحة العطر، وتراقب ما يدور حولها، وتنتظر. تنتظر قدوم طفلها. بسبب هذا الطفل، استطاع "مارتين" أن يلتصق بحياتها كحشرة غريبة. فمنذ نصف عام، كانت "سيلفيا" قد اتخذت قرارًا بإنهاء علاقتها بـ"مارتين". كانت تتأهَّب للقيام بهذا كل يوم، وتقريبًا قد صرَّحت به، ولكن بعد المشاجرات الحزينة التي انتهت ب تيقَّنت تيقَّنت أكثر حزنًا، تيقَّنت أنها حامل. ارتدت مُستسلمة خاتم الزواج الذي قدَّمه لها "مارتين"، وبعد أن بذلت قصارى جهدها، أيقنت أنها حقًّا تُحب هذا الرجل. كان "مارتين" شخصًا دمث الخلق. فخوفه من أن يفقد "سيلفيا"، جعله يُحضر لها الزهور، ويطبخ، ويعمل، ويُهديها رحلات إلى البحر. رحلة شهر العسل في نهاية الموسم لم تكن سيئة (الحشرات ما زالت متأثرة بأيام الصيف. المحيط صار باردًا، وفي المساء تسقط المظلات التي هجرها الناس بفعل الرياح، بينما ما زالت طيور النورس تُحلِّق).

ولكي لا تشغل بالها بهذا الأمر، أخذت تُراقب رجلًا مُسنًّا كان يشعر بالخوف. كان الرجل يُذكِّرها بشخص ما، كأنها رأته من قبل، لكنها لا تستطيع أن تتذكَّر متى وأين. كان نحيفًا، ويرتدي سروالا قصيرًا، وقميصًا شبكي. كان واضحًا أنه لم يأخذ كفايته من النوم. أخذ يُتابع حركات يدي المُضيفة، ويحفظ في ذاكرته كل إشارة من طقوسها الجوية. عندما انتهى العرض، التفت إلى النافذة، وأخذ يُتابع

بلا حول ولا قوَّة المنظر الخارجي المُتسارع. لم يتحرك، تجمَّد في مكانه إلا عيناه - بياض عينيه مُغطًّى بشبكة من الأوردة الدامية - كانتا تتحركان من ناحية إلى أخرى كإبرة بندول جهاز قياس الزلازل، والتي ترسم على ورقة بيضاء خطًّا أسودَ يُحدد قوَّة الزلزال. هناك شريان سميك برز في رقبته، بينما يضع على ركبتيه كاميرا ذات عدسة ضخمة. أخذ بلا وعي يُدير زوم الكاميرا، فيخرج جسم العدسة، ثم يعود مرَّة أخرى إلى مكانه. هناك امرأة تجلس بجوار الرجل، عيناها مغلقتان، ومفاصلها بيضاء. لا يتنفسان.. كانا يفكران في جسديهما المحبوسين في هذه الكبسولة المصنوعة من هذا المعدن الفضائي اللامع. أخذت المتسبِّبة في هذا الخوف تمر بالطائرة على ساقين نحيفتين ملتويتين، تتفقَّد أحزمة الأمان لدى ركَّاب الطائرة، وتُغلق خزائن الأمتعة الموجودة فوق رؤوسهم. شعرت "سيلفيا" بأن عصبية الآخرين قد بدأت تنتقل إليها، فأدارت رأسها إلى الناحية الأخرى، وأغلقت عينيها، أحسَّت بأن سرعة الطائرة تجثُم على صدرها، وتجعلها تغوص عميقًا في وسادة المقعد. صمَّتْ أذنها، والتزمت الصمت. عندما فتحت عينيها، رأتْ جزءًا من المدينة عبر ثقب في السحاب. اختفت الصورة، وبدأت الصقيع يتشكل على النافذة.



كان الشاطئُ أبيضَ، والرمال دافئة، والسماء زرقاء. أمضوا اليوم كله على شاطئ البحر. "سيلفيا" تجلس أسفل المظلَّة، تشرب عـصير البرتقـال. كـان الـصوت الـذي أصـدرته أثنـاء الـشرب يـشبه الحـشرجة بـسبب الـثلج المجـروش الـذي عَلِـق في "شفَّاطتها" التي غاصت في قلب حبيبات البرتقال. كانت "سيلفيا" في حالة مزاجية جيدة جـدًّا. أخـذت تراقـب الأطفـال وهـم يـدفنون أنفـسهم في الرمـال الدافئـة، ويتظاهرون بأنهم موتى. أمَّا "مارتين" فـأسرع ليُحـضر لــ"سـيلفيا" مختلـف أنـواع كوكتيلات الفاكهة، وعندما انتهى، ذهب ليقفز عبر الأمواج، ويستمتع إلى حـدٍّ مـا بالبحر (وأحيانًا بمرارة). تذكَّرت "سـيلفيا" الكتيـب الـذي كـان موجـودًا بالطـائرة، والذي يتحدث عن كيفية التصرف حال حدوث كارثة جوية، وكذلك المجلـة التـي كانت في الجراب نفسه، والتي تتحدث عن كيفية الاستمتاع بالبحر كما يجب. كان "مارتين" يقضي وقتًا ممتعًا على الشاطئ بطريقة بها التَّـصنُّع نفـسه الـذي أخفـاه غضبه في مكتب استقبال الفندق.

كانت "سيلفيا" تجلس فوق حقائبها عند النـافورة الموجـودة في بهـو الفنـدق، وتستمع إلى الموسيقى الخافتة القادمـة مـن الـسماعات، وتراقـب "مـارتين" وهـو يُبدي غضبه بشكل منظم. لقد حاول الاعتراض على منحهم غرفة لم يجف دهانهـا بعد بشكل كامل. فبعد وصولهما تبيَّن لهما أنه تم تسكينهما في مبنى جـانبي مـن الفندق ما زال قيد الإنشاء. فقد التقوا في ممرات الفندق بالنقاشين الذين رسـموا

على الجدران أوراق النخيل والطيور البحرية، بينما صوت الـشنيور يـصدر بـشكل خافت من الغرف الأخرى، كما شـم رائحـة الخرسـانة الرطبـة في كـل مكـان. قـال "مارتين" غاضبًا: "لا بد أنكم تمزحون"، وطالبهم بتنفيذ ما بناه في مُخيِّلته عن تلـك الإجازة.هزَّت موظفة الاستقبال كتفيها، وأوضحت لـه بالإنجليزيـة أن هـذا ضـمن أعمال الصيانة، وأنه ليس هناك مـا يُمكـن فعلـه. فـالغرف مطابقـة للمواصـفات. وعرضت عليه غرفة أخرى في جانب آخر مـن المبنـى، لكـن هـذه الغرفـة لم تكـن مُطلَّة على البحر، وكان بها سريران منفـصلان، الأمـر الـذي اعتـبره "مـارتين" مُثـيرًا للسُّخرية.

قال مُستاءً: "يا لهم من جَهَلة".

لاح وقت الظهيرة بحرارته من خلف الزجاج. عاد المدخنون إلى البهـو المكيـف وهم يتصبَّبون عرقًا وسخطًا. جال ببـال "سـيلفيا" أن فـصل الخريـف قـد اقـترب، ولكن الجو ما زال شديد الحرارة. تأملت "سيلفيا" إصبع قـدمها الـصغيرة.. لم تبـدُ لطيفة على الإطلاق؛ فهي تُغطِّي قليلًا على البنصر، ولم يكن بها ظفر تقريبًـا. إنهـا ليست في حاجة على الإطلاق لمثل هذه الإصبع في جسدها.

قال "مارتين" مرددًا مرَّة أخرى: "جَهَلة"، وذلك كنوع من التأكيد على مـا يـشعر بـه مـن اسـتياء، ولكـن لم يُعـطِ هـذا انطباعًـا بأنـه واثـق مـن نفـسه. رفعـت "سـيلفيا" رأسـها مُجهـدة. عـبَّر "مـارتين" عـن غـضبه

الشديد، ولكن طريقته في التعبير كانت سيئة جدًّا. لم ينجح في ذلك. بدا مثل الهِـرِ الصغيرِ. كطفل صغير غاضب. يحاول أن يجذب الانتباه بغضبه هذا. لقد لاحظـت "سيلفيا" منذ وقـت طويـل أن "مـارتين" لا يُجيـد عـلى الإطـلاق توظيـف جـسده للتعبير عن انفعالاته.

هزَّت "سيلفيا" كتفيها قائلة: "ما باليد حيلة"، وأشـاحت ببـصرها بعيـدًا. شـعرت بأن موجة من الضحك تتجمع في داخلها، ولكن كيف لهـذا الـضحك أن يتحـرر مـن كل هذه الطبقات، ويطفو إلى السطح. أن يتطهر من كل شيء. أن يفعل شيئًا بوجـه "سيلفيا"، وأن يُحرك جانبي شفتيها، وأن يرفعهما ثم يعود ويخفضهما كإنسان يُرسل بهمة موجة إثر موجة، لكن لا يوجد شيء مُفرح في ذلـك. أصـيب "مـارتين" بالـذعر التام من هذه الحركة الغامضة للشفتين (إنه هِرٌّ صغيرٌ).

قال وهو يُطوِّح يديه:

- ما رأيك، ما الذي يُمكن فعله؟ سنتقدم بشكوى.

سأشتكي. خرجت منه الجملة الأخيرة حقيقة في شكل مُواء. كان في حالـة يُـرثى لها.

لوَّحت "سيلفيا" بيدها بلا مُبالاة قائلة:

- الأمر سيَّان بالنسبة لي.

فقال "مارتين" وقد خَفَتَ صوته تمامًا:

- سيَّان.

لم تقل "سيلفيا" شيئًا، لأن الواجهة الخارجية لغضب "مارتين" كانت قد تهاوت منذ زمن، منفصلة عن طوب اليأس الذي بُنيت منه حياته الحالية. كان واضحًا لها أن سعادته وغضبه ما هما إلا عاملا جذب لافتتين يُلوِّح بهما ليجذب انتباهها. هو يضع هذه الأشياء أمامه كدرع يحتمي بها، ثم يقترب في حالة من الرُّعب على أطراف أصابعه من "سيلفيا" ويموء. إن سعادته مثل غضبه تمامًا، تُشبه الجص الذي لم يجف بعد؛ فـ"مارتين" يشبه الغرفة الجانبية المَطْلية حديثًا بمادة ما تجعل الناس لا ترغب في الإقامة بها كثيرًا.

⊙⊙⊙

جلست "سيلفيا" على الشاطئ وقد بدا عليها الشر. كانت تنظر من تحت المظلَّة إلى "مارتين" وهو يقفز وسط الأمواج، ولم تستطع أن تُقاوم شعورها بالقرف. إنها تبغض "مارتين" لأنه يسبح. إنها تبغض "مارتين" لأنه يمشي. كان مارتين يسبح، ويسير، وينظر إلى الأفق على الرغم من أنه ليس في حاجة إلى شيء من ذلك. كانت تفوح من كل هذه الأنشطة التي تبدو عادية رائحة كريهة تنتشر على بعد أمتار. رائحة شيء مُصطنع. لاحظت "سيلفيا" كيف أن "مارتين"

يرتجف حتى خلال مشيه العادي؛ كان يخشى أنه لا يسير بطريقة صحيحة، يخشى أنه لا يسير كما ينبغي أن يسير. كأن خطواته وساقيه وقدميه، وكل هـذه الأشـياء تصرخ في الناس، وكأن الناس في الوقت نفسه يُصابون بالذعر منه. عندما كانا يتجولان في المساء في شوارع المدينة الضيقة، أو عندما يذهبان إلى السينما، أو المسرح، كانت "سيلفيا" تلاحظ في كثير من الأحيان أن "مارتين" في اللحظة التي يمرَّان فيها بزوج آخر من الناس (أو بفتاة جميلة، أو بشاب وسيم) - متأثِّر بإحساسه بأنه مُراقب - يبدأ في السير بشكل سيئ، حيث يركز كل جهده في التفكير بشكل كبير في طريقة سيره، والتي تسوء تمامًا. بالطبع لم يكن أحد آخر يلاحظ ذلك، لكن "سيلفيا" كانت تُلاحظ هذه النوبات العصبية بهدوء؛ فـ"مارتين" يبدأ في التلويح بيديه عكس الإيقاع الطبيعي لخطواته. ولكي يتجنب تزايد حركات اليدين غير المناسبة، فإنه يدخلها في جيبه، ولكنه في هذه الحالة يبدو متيبِّسًا وغير طبيعي، ويسير بشكل أسوأ، وبانضباط مُبالغ فيه. وإذا أراد أن يُخرج يديه مرَّة أخرى ويجعلهما تتحركان بحرية، فإنه لا يملك الشجاعة لذلك. لاحظ أن "سيلفيا" تراقبه، فابتسم لها، لكن جبهته تصبَّبت عرقًا. لم تبتسم له.

لكن طريقة المشي هذه لم تكن شيئًا مقارنة بالتجويف الداخلي لفم "مارتين". كان فم "مارتين" كارثة بكل المقاييس؛ فـ"سيلفيا" لاحظت مبكرًا أن "مارتين" مُصاب بالرُّعب من تجويف فمه؛ فهو لا

يُحب تناول الطعام في الأماكن العامة. كـان يـشعر أنـه مراقـب مـن الجميـع. أن الجميع يتابعون طريقتـه في تنـاول الطعـام، ويـشغله هـاجس مـا إذا كـان يأكـل بطريقة صحيحة أم لا. إنه يتناول قليلًا جدًّا من الطعام. كان هذا بالنسبة له فخًّـا رهيبًا. أسوأ شيء هو الهدوء. تناول الطعام مع "مارتين" في مكـان هـادئ. العـشاء مع الأصدقاء. العشاء مع والديه. كانت "سيلفيا" تجلس لدقائق تقطـع الطعـام في الطبق، بينما ترى العرق وهو يتصبَّب من جبهة "مارتين". وكيـف يتنـاول طعامـه بصعوبة شديدة. يجلس كلوح من الخـشب، يقـبض عـلى أدوات المائـدة، ويمـضغ طعامه في هدوء وحرص، كأنه يسحقه، أو كأنه يتوارى بهذا المضغ بعيدًا كالتلميذ الذي ارتكب خطأ ما. عندما رأته "سيلفيا" على هذا الوضع لم تستطع تناول مزيد من الطعام. كان "مارتين" يأكل، ولكنه في داخله يموء كالهِرِّ الصغير. أخذ يُحدِّق في أدوات المائدة، يُحرك إصبعه الصغرى بحرص، يفحـص الطعـام، يُقطعـه، ويمـضغه بمعاناة شديدة. تنظر "سيلفيا" إليه، وفجأة تسمع ما يـسمعه هـو؛ تـسمع صـوت لُعابه وهو يُقذف على الطعام، وتسمع صوت سحق وطحن الطعـام داخـل فمـه. إن "مارتين" يعلـم أن لا أحـد يـسمع مـا يحـدث في تجويـف فمـه، ولكـن مجـرد وجود احتمال أن هناك من يُمكنه أن يـسمع ذلـك، يجعـل جـسده يتحـوَّل تمامًـا. يـومئ إلى شيء مـا، يـضع يـده عـلى فمـه عنـدما يتحـدث (يتـصبَّب العـرق مـن جبهته)، يبتسم، يُفكر في مريئه، يبدو ككتـاب تعليمـي في حـصة البيولـوجي. إنـه

يقضي عقوبة تناول الطعام الرهيبـة. عقوبـة الجـسد. يجلـس "مـارتين" حبيـسًا في جسده كأنه يجلس في زنزانة مع المراقبة المستمرة. يجلس في وحدته، بينما هنـاك شخص ما يراقبه من ثقب الباب بشكل مـستمر في هـذا المكـان الـذي يقـضي بـه عقوبة السجن المؤبد.

كانت "سيلفيا" تتأمَّل المحيط. هناك في مليارات الهكتوليترات من المياه تـسبح الحيتان والحيوانات الكبيرة في أحجام البيوت (ماذا عساها أن تكـون؟ وهـل هــي تشعر بما في جوارها على بُعد 20 مـترًا؟)، منهـا عـلى سـبيل المثـال الحبَّـار وعينـاه اللتان في حجم كرة القدم، والأسـماك الغـضروفية الـشفافة ذات الأسـنان الحـادة، والتي تُضيء بأنوارها الفسفورية كهوف البحار، كل أشكال الحياة التي يُمكن أو لا يُمكن تخيلها. وأُجزم أنه لا يوجد مخلوق واحد في هذا البحـر الـلا متنـاهي شـعر يومًا بأن جسده يُمثل له عبئًا أو مُشكلة. أو شعر يومًا بأنه ضيف في هذا الجسد.

إن "سيلفيا" التي كانت تشغل بالها كثيرًا بالنظر إلى سجن "مارتين" قـد تعبـت من هذا الأمر حتى أنها أصـبحت تعـاني مـن تبلُّـد غريـب في المـشاعر جعـل مـن "مارتين" شخصًا لا يهدأ كمن اشتعلت به النيران. كان يركض ليُحضر لها كـوكتيلات الفاكهة، ويطبخ، وينظف، ثم عرض عليها الزواج. كان يرى من "سـيلفيا" سـطحها الجليدي، والتي كانتا يداه تنزلقـان مـن فوقـه، ولا تجـدان مـا تُمـسكان بـه. لقـد

تمكن "مارتين" عندما أهداها هذا الطفل من أن يغرس خطافه في "سليفيا" التي كانت تقف أمامه كالجدار المتجمد لجبل "إيفرست"، ثم قبض على هذا الخطاف براحتيه المُتعبتين بكل ما أوتي من قوة.

كانت "سيلفيا" تتساءل في أحيان كثيرة: "هل هذا حب؟".

أجابت نفسها: "نعم، هكذا يبدو الحب تقريبًا".

عشق "مارتين" كل سنتيمتر في جسد "سيلفيا".. كان يتصرف كالأحمق، كالشاب "فيرتير" في رواية "جوته" "آلام فيرتير"، فهو يمكن أن يفعل أي شيء من أجلها.

عاد "مارتين" تحت المظلَّة، قَبَّلَ خدَّها، وجلس على الرمال. أخذ يدها بين راحتيه، وأخذ يربت عليها. ابتسم لها، ولكنها ظلت باردة.

قالت له بشرود، وقد سحبت يدها:

- دعني وشأني.

خفض "مارتين" عينيه إلى الأرض مُرتبكًا.



في المساء بدأت الرياح تهبُّ من ناحية البحـر. شـعر أولئـك الـذين تـأخروا في الجلوس على البحر يشعرون بالبرودة الشديدة، ويفرون من الـشاطئ ومناشـفهم حولهم. كانت "سيلفيا" تقف في الشرفة وتستمع إلى صوت الأمواج الهادرة.

في الليل كـان المطـر ينقـر فـوق زجـاج النافـذة. لاحظـت أن "مـارتين" مـا زال مُستيقظًا، وينظر إلى الظلام. أغلقت عينيها، واستمرت في التظاهر بأنها نائمة.

⊙⊙⊙

استيقظ "مارتين" في الـصباح البـاكر. في الفـترة الأخـيرة لم يـستطع النـوم عـلى الإطلاق. فقد كان طوال هذه الأيام يشعر بحَرَقَان في عينيه. غطَّى "سـيلفيا" التـي كانت قد ركلت الغطاء خلال الليل، وأغلق باب الغرفة بحرص. إنه الفجـر. كانـت موظفة الاستقبال تغفو خلف الحـاجز، سـمع "مـارتين" صـوت أنفاسـها. الممـرات خاوية، والبهو أيضًا. كما كانت النافورة الصناعية مطفـأة أثنـاء الليـل. خـرج أمـام الفندق، ونزل على السلالم الخرسانية متوجهًا إلى الشاطئ. الجو غائم. كان شـاطئ البحر رمادي بـسبب الرطوبـة، كـما أن رمـال الـشاطئ قـد صـارت صـلبة بـسبب عاصفة الليل. وفي كل مكان عـلى الـشاطئ انتـشرت الأعـشاب البحريـة وقناديـل البحر الشفافة. داس "مارتين" بحذر على أحدها بطرف حذائه، كـان طريًّـا كـصدر امرأة.

مشى لبعض الوقت. بدت السماء كانعكاس لأمواج البحر. بصق، نظر حوله، لا أثر لمخلوق في المكان. شد رباط حذائه، وبدأ يركض.

كان يتنفس بشكل منتظم. ضرب بقدميه الرمال الصلبة، وطوَّح ذراعيه المتيبِّستين في زاوية مستقيمة، وكأنه يقطعُ الهواء براحتيه. كان كل شيء من حوله قاسيًا وخاويًا. مرَّ في طريقه بفندقين كبيرين، لا توجد على الشاطئ مقاعد أو مظلات. المجال مفتوح. ظل يركض وهو ساخط على نفسه. كان عليه أن يختار موعدًا آخرَ، مكانًا آخرَ، وقتًا آخرَ من العام، أي شيء. إن "سيلفيا" تستحق ذلك. لم تبدُ على ما يرام في الفترة الأخيرة. إنها تُعاني من أشياء كثيرة باستمرار. كانت هشة جدًّا. ملأت الدموع عيني "مارتين". إنها لا تستطيع أن تستمتع بالإجازة. أدرك بمرارة أنها منعزلة تمامًا، أنها تواجه كل شيء بمفردها. لا تسمح لأحد بالاقتراب منها. إن "سيلفيا" هي أكثر إنسان يحب العزلة عرفه في حياته. بعد حرب طويلة أصبحت تُعادي والديها. كان "مارتين" يعرف أنها تتعامل مع والدتها بنوع من البرود المرعب. فقد حكت له ذات مرَّة كيف أنها لم تعد تستطيع أن تتحمل حديثها، وأنها تكره نغمة صوتها.. "وصفت لي "سيلفيا" أنه عندما كانت أمها ترد على التليفون وتتحدث مع أختها التي تعيش في الطرف الآخر من الجمهورية، فإن لهجة هذه المنطقة البعيدة تبدأ في الظهور في حديثها، فقد كانت أختها عبر التليفون قادرة على أن تُفسد لغتها تمامًا باستخدامها تركيبات لغوية ونهايات قواعدية وعبارات معينة كانت أمها قد شطبتها من قاموسها

منذ عشرين عامًا عندما انتقلوا للعيش في المدينة. لم تكن ترفض هذا، بل إنها ومن دون أي مقاومة تعود من جديد إلى هذا الفترة الغابرة من حياتها. الأمر الأسوأ هو عندما كانت تتحدث مع صديقاتها، حيث كنت أسمع حديثهن عبر الجدار، كنتُ أسمع مجرد أصوات جوفاء، وألاحظ تغيرًا رهيبًا في لحن الكلام، كانت تُغير جلدها تمامًا، تغير حركات يديها، تُدير رأسها مئة وثمانين درجة، وتبدأ في العودة إلى الماضي. إنها تتحول إلى إنسان مختلف تمامًا. وأضافت "سيلفيا" باستياء: كيف يُمكن أن تكون مزيفة إلى هذا الحد".

كيف لها أن تعاني من كل هذه الأشياء. تعجَّب "مارتين" من هذا الأمر، وشعر بالأسف من أجلها. كان يعلم أن "سيلفيا" تُعاني على الأقل لثماني ساعات في اليوم. معاناة بدوام كامل. إنها تحمل العالم كله فوق ظهرها. كيف يُمكن أن تبدو الأمور عندما يسحب الإنسان خلفه كل هذا الوزن؟ لا بد أن يوجد من يُقدم لها يد المساعدة ولو قليلًا. كان "مارتين" يقول لنفسه: " يجب ألا يظل شخص ما وحيدًا هكذا". لذلك اعتاد أن يشتري لها الزهور، ويغسل ويكوي. حاول أن يُحب "سيلفيا" على الرغم من أنه يعلم أن حبه لها قد تحول منذ وقت طويل إلى شفقة. كانت "سيلفيا" بالنسبة له مجرد مهمة يؤديها. كم من مرَّة حزم أمره وقرر أن ينفصل عنها. كان على وشك أن يفعلها. استجمع قواه، وتأهب أن يُخبرها بأنه لا يستطيع الاستمرار، وأنه لا يرى أي مستقبل لهذه العلاقة، لكنه ولعدة أيام كان يؤجل الحديث

معها في هذا الأمر، وتمامًا في اليوم الذي كان متيقنًا بأنـه سـيفعلها، سـبقته "سيلفيا"، وأخبرته أنهـا حامـل. أُسـقط في يـده، وبـلا حـول ولا قـوَّة طلبهـا للزواج.

⦿⦿⦿

أبطأ من ركضه لأنه رأى بعض الناس. أخذ يتنفس بعمق. لم يكـن تنفـسه مُريحًـا إلى حد كبير. سار ببطء، فكر في رئتيه، بدأ يُحرك يديـه، ولكنـه فـضل أن يـضعهما في جيبيه. بعد تفكير قصير أخرجهما مرَّة أخرى، ولكن الناس كانوا قد اقتربوا منه: زوجان مُسنان. الرجل ذو عينين حمراوين، ويرتدي سروالًا قصيرًا، وفانلة عـلى شـكل شـبكة، ويحمل في عنقه كاميرا. أما المرأة فكان شعرها أبيض، فكَّر لـ"مارتين" في أنها ربما كانت جميلة في شبابها. شعر أنه رآها من قبل في مكان مـا، أو أنـه يعرفهـا، ولكـن قبـل أن يتذكَّر كان الرجل قد بادره بالكلام.

قال وهو يبتسم بوُدٍّ:

- هل يُمكن أن تلتقط لنا صورة؟ بدا الرجل كأنه لم يذق طعم النوم منـذ مئـة عام. نظرت المرأة إلى الرجل بقليل من الاستياء.

أومـأ لهـما "مـارتين" موافقًـا عـن طيـب خـاطر. أخـذ الكـاميرا، وألـصق عينـه بالعدسة.

ضم الرجل المرأة إليه. ابتسما ووقفا بلا حراك.

أعاد إليهما الكاميرا.

قال الرجل وهو يُحدِّق في السماء:

- لقد بدأت السحب تنقشع.

رفعت المرأة عينيها بدهشة، ثم خضتهما وودعت "مارتين" باقتضاب، وانطلقت في طريقها إلى الشاطئ. كانت تضع على كتفها وشاحًا أسودَ، وتسير في وقار، ولكن كتفيها كانتا تنخفضان كأنها تحمل شيئًا ثقيلاً. قال "مارتين في نفسه: "من المؤكد أن هذه السيدة كانت في شبابها رائعة الجمال". كان شعرها مشدودًا بمشبك، وانزلقت خصلة شهباء من خصلاته، والآن تتقاذفها الريح، كأنها تلوِّح لشخص ما. إنها هذه الحركة الغريبة، هذه الحركة المألوفة، كما لو أن أحدًا يُحرك حبلًا طويلًا ليُشكل به موجة. كأنها ابتسامة باهتة.

- اختر واحدة!

استدار "مارتين" ناحية الرجل.

أمسك العجوز بكيسك بلاستيكي ممتلئ بالأصداف الفارغة.

عرض عليه الرجل مرَّة أخرى قائلًا:

- نعم، اختر.

بقليل من شرود الذهن خربش "مارتين" بيده في الكيس. أخرج واحدة مـن المَحَـار، وأمسك بها مرفوعة بين إبهامه وسبَّابته، وأخذ يتفحص طياتهـا، كانـت بـداخلها عـروق اللؤلؤ. أغلق عينيه، ثم نظر بعيدًا، رفـع المحـارة إلى أعـلى قلـيلًا، ووضـعها أمـام عينيـه فاختفت المرأة التي تسير بمحاذاة خط المـد. انتظـر قلـيلًا فخرجـت المـرأة مـن خلـف المحارة.

ابتسم، أخفض يده، وشكره. ودَّع كل منهما الآخر، وسار في اتجاه مختلف. بعد قليل عاد "مارتين" إلى الركض مرَّة أخرى.

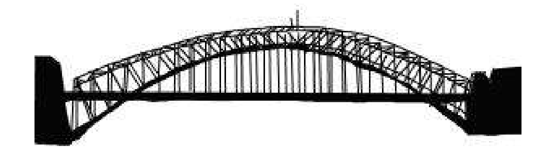
⦿⦿⦿

عندما عاد إلى الغرفة كانت "سيلفيا" لا تزال نائمة. أغلق الباب بحذر، وجلـس على السرير. أخرج الصَّدَفَة من جيبه، وقلبها في كفه للحظات، ثم وضـعها بهـدوء على الطاولة الصغيرة بالقرب من رأس "سيلفيا". اسـتلقى عـلى الفـراش، ولكنـه لم يستطع النوم. أخذ لوقت طويل ينظر إلى الجص الرطب على الجدار المقابل. سمع صوت هدير البحر من خلف زجاج النافذة. بدأ يوم جديد.

فتحت "سيلفيا" عينيها وسألته:

- أين كنت طوال هذا الوقت؟

عقارات



أغلق السائق الراديو. بدأت الشمس تُشرق. كانت المرأة نائمة. رأيت كيف تنزلق حدقتا عينيها تحت جفنيها. سرنا بالسيارة لبعض الوقت عبر المدينة بلا هدف محدد، إلى أن تنتهي نقودي. قاد بنا السائق الطيب لبعض الوقت مجانًا، لكنه بعد ذلك توقف. أيقظت المرأة بحرص، وهبطنا من السيارة لنواجه رياح الصباح العنيفة في مكان ما على أطراف المدينة. هناك ثقب وسط السحب يظهر في الأفق، كما كانت الطيور تصيح بما يُشبه الصراخ، هناك أوراق صحف تم لصقها على الحواجز، وهناك كوب بلاستيكي ينزلق على الأسفلت مُسبِبًا صخبًا شديدًا. أغلقنا باب السيارة، وابتسم لنا سائق التاكسي ابتسامة أمومة وانطلق مبتعدًا. سرنا فوق الجسر الموجود في مكان مرتفع فوق الوادي، إنه طويل وواسع. في قلب الجسر يوجد خط للمترو. غالبًا ما أشعر بحركته تحت قدمي، كما يوجد على الجسر أيضًا طريق يتكون من أربع حارات، لكنه الآن خالٍ من السيارات. انطفأ نور المصابيح البرتقالية دائرية الشكل، والتي يتصل طرف كل منها بالآخر. وعلى عمق كبير أسفل الجسر تُرى أسطح المنازل.. الأطفال في غرفهم، والأمهات نائمات ويحلمن بأحلام مزعجة مملوءة بالمعادلات الحسابية. يحسبن وزن المنتحرين الذين سيهوون عليهم كوحوش مرعبة ذات رؤوس مدببة ترتدي رابطات عنق، تخترق برأسها السقف والعوارض الخشبية لتسقط مباشرة في أسرة ومهود الأطفال. يستيقظن وهن يتصبَّبن عرقًا، ونتيجة لهذا الضغط

العصبي المستمر بسبب الموت الذي يحوم ويُحلق فوق "نوسـله"[1] مثـل الـصداع النصفي فإن الأمهات في هـذا المكـان تُعـانين مـن مـشاكل صـحية، خاصـة قرحـة المعدة.

سرنا لفترة طويلة، إن حواجز هذا الجسر تنمو كما لو كانت شيئًا حيًّـا. في المـاضي كانت بالكاد تصل إلى الخصر، ولكن في فترة التسعينيات المظلمة التي لم يكـن بهـا لا تليفون ولا إنترنت، لم يكن لدى الناس قدر كافٍ من وسائل التسلية. اعتاد أن يمر من هنا - في هذا الوقت نفسه من الصباح -رجال الأعمال السكارى، وشـباب الـسياسيين الفشلة، متوجهين من البارات مباشرة إلى أعمالهم، في سـياراتهم المكـشوفة المـصنوعة خصيصًا من نوع الـ"ترابنت" والــ"لادا". كـانوا يربطـون زجاجـات الـشمبانيا بـأبواب سياراتهم ويجذبونها وراءهم على الطريق. وأحيانًا يميلون معها إلى الخـارج ويتركـون أطراف أصابعهم تنزلق على الأسفلت وكأنه سطح النهر. هؤلاء الفشلة الـذين تمتلـئ دماؤهم بكل أنواع الكوكايين، وتدور المدينة مـن حـولهم كالإعـصار، وجميـع إشارات المرور تومض مُنهكة بـاللون البرتقـالي، بيـنما توجـد الطيـور وأكيـاس البلاستيك معًا بين الشجيرات الصغيرة، تمامًا مثلما يحدث اليوم؛ فهؤلاء التجـار

---

(1)- "نوسله" هي حي في العاصمة التشيكية "براج" يوجد به جسر "نوسله" الذي يربط بين جبلين، وكان يُعد معجزة معمارية عندما تم إنشاؤه في ثمانينيات القرن الماضي، ويبلغ ارتفاعه 42.5 متر، وطوله 485 مترًا. كانت تحدث من فوقه كثير من حالات الانتحار، حيث يقفز المنتحر من فوقه فيـسقط عـلى منـازل حـي "نوسـله" الذي يقع أسفل هذا الجسر، مما كان يُشكل كابوسًا لسكان هذا الحي الهادئ.

المتعطشون للدماء هم نتاج غياب النظام المتكامل، هم هذا النبت الشيطاني لفترة الخصخصة، هم هؤلاء الحانقون الساخطون. هؤلاء عندما كانوا يسعون لمغامرات جديدة فإنهم كانوا يقفون في منتصف الجسر الخالي، ويرشون عبر الحاجز السوائل على المارَّة، وعلى السيدات المُسنَّات اللاتي يسحبن خلفهن حقيبة التسوق، وأيضًا على المُشرَّدين وسُعاة البريد المارِّين أسفل الجسر. ثم يقومون قبل أن يفقدوا كامل وعيهم بتثبيت شفرات الحلاقة على الزلاجات في ملاعب الأطفال، وفي المحطة الأخيرة للترام كانوا يثبتون إبر الحقن في المقاعد، ثم ينامون على المقاعد في الحديقة مع أول شروق لأشعَّة الشمس، ملتحفين بمعاطف من فراء صغار عجول البحر، تاركين نعالهم المصنوعة من جلد التمساح أسفل مقعد الحديقة وكأنهم في غرفة المعيشة.

احتجت المرأة على ذلك مُدَّعية أن كل هذا من اختراعي، وكان على أن أقسم لها وأثبت لها أن كل هذا حقيقي، وأننا لو كنا نقف هنا في هذه الساعة في عام واحد وتسعين، لطرنا على الفور عبر هذا الحاجز، لكن لا يهمُّ، فهذا الوقت قد ولَّى منذ زمن، وهو موجود فقط في كتب التاريخ التي تُباع بعشرين "كرونة" في مكتبات بيع الكتب القديمة. إن الوقت لا يتحكم في علامة الزائد التي عفى عليها الزمن، إن الوقت يقصر وينكمش، وينهار رأسًا على عقب إلى ما لا نهاية. إنه يزداد مع مرور الزمن، يزداد سرعة، يتجمع ويزداد في الخزانات التي ابتكرناها من أجله. في الماضي كان الناس يذهبون ليهمسوا بحكاياتهم في

تجاويف الأشجار، في شقوق الجدران. اليوم يزداد الوقت على اليوتيوب بمقدار أربع وعشرين ساعة في الدقيقة، أي أربعة أعوام في اليوم. ظل هذا المخلوق غير الملموس يكبر ويكبر حتى التهم العربة بخيولها وسايسها، التهم المرأة الريفية بخنازيرها، وأنتِ، سيلتهمكِ أنتِ أيضًا، ها ها.

جلسنا طويلًا في أحد محلات الحلوى، حيث المنظر المُطل على المدينة التي بدأت تستيقظ. شربنا القهوة وأكلنا قطعًا من الحلوى ما زالت ساخنة على شكل تابوت مغطى بالكريمة.

سألتها وأنا أتناول الكريمة:

- ما اسمكِ؟

للحظات لم يحدث شيء. للحظات لم أفكِّر في شيء، وهو الأمر الذي أدهشني، ولذلك سألتها، لا أستطيع أن أجدا لما حدث تفسيرًا غير ذلك. قالت المرأة:

- "آنَّا".

اسم جميل.. في بدايته وردة وفي نهايته وردة. على الأرجح هي نفسها، رددته بنوع من التنغيم. احمرَّ وجه "آنَّا"، وخفضت عينيها وأخذت تنظر إلى الحلوى، فلاحظت لأول مرَّة أنها جميلة، لكن في هذه

اللحظة رنَّ تليفوني. كان المتصل هو صديقي العزيز سمسار مكتب العقارات. قلت له:

- أهلًا أيها السمسار.. حسنًا.. سنأتي.

ثم قُلتُ لـ"آنَّا":

- احكي لي عن نفسك.

فقالت بخجل:

- ليس هناك الكثير لأحكيه.

ضربتُ الطاولة بقبضتي حتى اهتزت الأواني الخزفية وقلت لها:

- لا داعي للكذب.

سالت الدموع من عينيها، ثم انفجرت في الضحك.

كنتُ غاضبًا بعض الشيء:

- إن ذلك منافٍ للحقيقة. يا "آنَّا"، إن هناك الكثير والكثير. انظري إليَّ، أنتِ مثل يوتيوب، أنتِ مليئة بالأشياء الغريبة وبالذكريات، أنتِ خزَّان للوقت. أنتِ غبية. أنتِ المُفجر والانفجار. أنتِ ألف ليلة وليلة في شكلها الآخر. أنتِ التطور والخلق. أنتِ عقدة في

شَبَكة، بل أنتِ الشبكة نفسها. لديكِ ما يزيد على ثلاثمئة صديق، وهذا ليس شيئًا سيئًا، أنتِ لم ترِيهم في حياتِك، لكنك تعرفين أدق التفاصيل عنهم. إنهم يكتبون لكِ طوال الأيام والليالي بلا كدٍ ويخبرونك عمَّا أكلوه وما شربوه، وعن الفيلم المسروق الذي شاهدوه على الإنترنت، وعن رأيهم في الحرب في "مالي"، أو في "جورجيا"، أو في أي دولة أخرى، وعن هذه الأشياء الخيالية التي تُؤلف من أجل استخدامها في التقارير الإخبارية التلفزيونية. لديكِ حساب بنكي تكدسين به الأموال غير الموجودة لتسديد ديون غير موجودة، تشتري بها بنطلون من الجينز باليًا على الموضة، وتُسافرين إلى بلاد غير موجودة، حيث يُمكنك أن تشاهدي الفقر عبر الزجاج المضاد للرصاص، ومن خلف الحجاب الضبابي لتطعيماتك الثمينة.

لا تخجلي يا "آنَّا"، فبداخلك العالم بأكمله، والكون كله، ففي كل ملليمتر من جلدكِ يا "آنَّا" توجد أشياء لا متناهية – قبَّلتُها إلى ما لا نهاية – يا حبيبتي، احكي لي عن نفسك، سأكتبُ عنكِ كتابًا (تشبَّثت "آنَّا" بقرص الطاولة وهي منفجرة في الضحك بينما تتساقط دموعها). أُقسمُ لكِ. أنتِ لا تُصدقينني، ولكنني أديب. قصصي فاسدة، هناك الكثير منها، وكلها تقريبًا واحدة، لكن قصتكِ مختلفة، قصتك بالفعل ليس لها وجود، غير موجودة، إن قصتكِ هي أنكِ تتطلعين لأن يكون لكِ قصة، تتطلعين إلى الرومانسية، وإلى العاطفة، وإلى التحرر من القيود، لكن المشكلة أنه لا وجود لهذه القيود، الرومانسية شيء

قديم وسخيف، وكل القصص مستهلكة، وبالية بفعل فاعل، وأنتِ لا تُريدين التسوق في بيت دعارة تفوح منه رائحة النفتالين، حيث يُلاحقون الثوابت كما يُلاحقون المصابين بمرضى الزهري.

يا "آنّا".. إن عينيك ترى ذلك، لم يعد للعاطفة وجود منذ زمن طويل. هناك فقط وصفات للوصول إليها. إرشادات حزينة تثيرنا في كثير من الأحيان، فيديوهات حزينة يقوم فيها لاعب كمال الأجسام وفقًا للسيناريو الموضوع باغتصاب فتاة هزيلة. مواقع جنسية مثيرة، حيث ينقسم الحزن فيها إلى عشرين فئة وفقًا للممارسات المختلفة. ممارسات قديمة تُجبر الإنسان على البكاء. وبعد ذلك عندما تُقابلين شخصًا ما، عندما تُقابلين رجلًا ذا قيمة، رجلًا يُعجبك، فإنكِ تخلعين ملابسكِ على الفور، كأن ضوءًا أحمرَ قد أضاء في معمل "إي. بي. بافلوفا"، كأن شخصًا ما قد ضرب الرَّف بقوة، وصاح: "عرض". أترين كيف يسعى الرجال الخائفون بجباههم المتعرقة إلى الانضمام لواحدة من الفئات العشرين. كيف يقفزون من حولك ويتدربون وفقًا للسيناريو الموضوع، وأخيرًا فإنهم عندما يستلقون، يتنفسون بشكل مصطنع، ويتظاهرون بأن النشوة قد انطفأت في داخلهم، ثم يتساءل هذا الشباب الخائف بشكل غير مباشر إذا ما كانت هذه المسرحية قد نجحت، وإذا ما كانوا قد أدوا أدوارهم بشكل جيد، بينما تتجمع الدموع في زوايا عينيكِ. تصمتين، بينما ينسحبُ الرجال إلى قواقعهم، ويثنون على أنفسهم، ويرتاحون، ثم يعملون على أنفسهم لكي

يخرجوا لنا عرضًا أكروباتيًا أكثر هستيرية، ومسرحية أكثر جنونًا تقوم على القسوة والرغبة.

يا "آنَّا"، ماذا سنفعل معًا؟ حتى أنا لن أكون أفضل حالًا، ولا أنتِ. إن الحب في قرننا هذا هو فعل أكثر حزنًا من السياحة. "آنَّا" يا حبي، إن الصقيع يضربنا. يمكننا الآن أن نتوجه إلى منزلي، أن نرتدي بصعوبة أزياء الرغبة الذكورية والأنثوية الجاهزة، يُمكننا أن نتحقق من نعومة أجسادنا، ونراقب كيف أن حركاتنا تُفسد مقدمًا هذا الاتفاق البائس. لا يوجد مكان نذهب إليه، فالجسد به قليل جدًّا من الفتحات، وعدد الأوضاع نهائي، لا يُوجد شيء لنحطمه، لقد أضعف الروك أند رول أجسادنا منذ وقت طويل، لقد تم إطلاق النار على قادة الفرق الغنائية وسط عدد لا يُحصى من الموسيقيين. يا "آنا" إن العطش هو المرادف الخاطئ للرغبة، العطش هو شيء جاف وغير جنسي. بوسعنا أن نعطش معًا طوال الليل. إن صديقي الفنان الكوميدي كان مُحقًّا حينما قال إن الجنس في نهاية المطاف هو مجرد أداء حركي.

نظرتُ من النافذة.. كانت تطل على المدينة المطلة على الوادي. كانت السحب في وادي "نوسله" (إن "براج" كلها عبارة عن وادي) مُتقطعة ويلاحق بعضها بعضًا، والشمس تُطل من بينها. في مكان ما من قلب المدينة، هناك بعيدًا، في أنقاض محطة المترو التي تُسمى "نارودني ترشيدا"، كانت آلات تكسير الخرسانة تدقدق في هدوء كساعة اليد، أو كقفل خزينة

الأشياء الثمينة. هناك حفرة وشيء جديد يكبر في داخلها مع سـماع صـوت صريـر، ولكن حتى الآن يبدو الأمر كمن يقوم بإجراء عملية لمفصل الحوض. حفرة عميقة بداخلها كثير من الأشياء، لكن لا أحد حتـى يُريـد أن يـرى مـا بهـا. هكـذا تُـسرق المدينة: تقريبًا في منطقة ملعب "ليتنا" يمكنك أن ترتدي السماعة الطبية، وتستمع بانتباه إلى صوت الطقطقة هذا، وتُحاول أن تصل إلى الكـود. إلا أن هـذه المدينـة التي تنمو من حولنـا كلاعـب كـمال الأجـسام الـذي تتـضخم عـضلاته باسـتخدام الهرمونات، إنها تنمو من حولنا بالبناء المستمر الذي سيسقط مرَّة أخرى، كأنها بلا كود يحميها.

انتهت الليلة منذ وقت طويل، يا "آنَّا"، عندي اقتراح آخر:

- فلنذهب لزيارة صديقي سمسار العقـارات. سنقـضي لديـه الـسهرة، ثـم سـيطلع الصباح، وسيكون يومنا مرَّة أخرى صعبًا للغاية، ولكن احكي لي أولا عن نفسك، حـسنًا؟ سوف أخمِّن.. إن عُمرك واحد وثلاثون عامًا. أنـتِ رائعـة الجـمال، واسـمك "آنَّـا". أراكِ تجلسين بجوار نافذة أحد المقاهي في وقت غير محدد، في بداية يوم ربيعي حار، والذي ربما لن يبدأ لأننا سنمد هذه السهرة طالما نستطيع الوقـوف عـلى أقـدامنا. لقـد قـضينا الليلة في سيارة التاكسي، يُمكن اعتبار هذا الأمر حقيقيًّا. إن صورتكِ تنعكس على القرص الزجـاجي للطاولـة مثـل المـرآة، تنظـرين فـترين بـسلام كـل العيـوب والبثـور التـي تتشكل في وجهك. ما كل هذا الذي يحمله الإنـسان في نفـسه، مـا كـل هـذه الأشـياء

الغريبة التي لم يسعَ أبدًا للحصول عليها. يا "آنَّا"، أنتِ علامة استفهام تسير على قدمين. أنتِ غامضة مثل مقدمة أفلام هوليوود التجارية. أنتِ ناجحة ومربحة. أنتِ مثالية، والعالم من حولكِ مثالي، وتلك هي المشكلة، لأنك لا تستطيعين التَّخلُّص من خلفيتك، فهذا يجعلكِ تتطلعين لأي خطأ، لأي عيب.

⦿⦿⦿

يا "آنَّا"، أرى أنه من الأفضل أن أصمت، سنشاهد التلفزيون، لقد فتح الحلواني التعيس - الذي يقف خلف الطاولة والمدمن جسديًّا للسُّكريات - للتَّوِّ صندوقه، وبدلًا من أن نجد به شاشة عرض، كان جالسًا به الفنان الكوميدي الذي لم يعد يظهر كثيرًا في التلفزيون في الفترة الأخيرة، إنه شخص غريب الأطوار، إيجابي ومبتسم، مُتأثِّر بالأزمة القلبية التي أُصيب بها مثلما حدث في أوبرا "الشيطان وكاشا"، عيناه بدتا كمصباحين يشع منهما سلك "التنجستن" بلونه أحمر. أخذ الفنان الكوميدي يوضح للمذيعة الشابة (التي كانت تبدو من الخارج كاملة الأوصاف، أما من الداخل، تحت الجلد فهي تُشبه "فرانكشتاين"، وخاصة فيما يتعلق بالأفكار) بأن الإنسان يستطيع أن يتحمل كل شيء. قالت له: "صباح الخير" بطريقة تشعر معها أنها اكتشفت أمريكا، وأضافت أن أفضل شيء في الصباح هو الجري، أو على الأقل ممارسة تمرين القرفصاء عشر مرَّات. أخذت هذه المذيعة التي تُشبه الوحش

الذي يُعاني من اضطرابات جسمانية ونفسية تشرح هذا للأمة، لكن من حسن الحظ أن كان معها هذا الكوميديان ذو الخبرة، والذي تسلَّم دفَّة الحديث قائلًا: "في ألمانيا تقوم أسماك السلور العملاقة بحفظ النظام (ضحك)، فهي تلتهم البجع، وتتصرف كآكلي لحوم البشر. (ضحكت المذيعة أيضًا محاولة أن تتعلَّم شيئًا)، إن هجمات أسماك "السلور" العملاقة مريعة ومُخيفة (ضحك، فاصل إعلاني)".

طلبتُ قطعتين أخريين من الحلوى. أكمل الفنان الكوميدي حديثه قائلًا: "بالإضافة إلى أشياء أخرى فقد تبين أن كل المشاركين في سباقات الدراجات يتعاطون المنشطات. إن "لانس أرمسترونج" يُشبه مصاص الدماء - يُشبه الأفعى الأسطورية التي تأكل ذنبها – سنوات وهي تعض نفسها، وتمص دمها، يا لها من صدمة يا أصدقاء، إن الناس قادرون على فعل أشياء رائعة". أومأ الكوميديان برأسه، لكن صديقي العزيز الذي يُتاجر في العقارات، قدم ذات مرَّة فكرة تُمثِّل المَخرج لهذه المسألة: "لماذا لا يُسمح بتناول المُنشطات؟ لماذا لا نُخفف العبء عن هؤلاء الرياضيين المُعذبين؟ إن الرياضة هي متعة الجسد، إذًا فلماذا لا نستمتع بها بطريقة أكبر؟ دعنا من انضمام الأولاد إلى فرق الكشافة، ولنذهب لنستمتع بالنظر إلى رياضة كمال الأجسام الصحيحة". أنا شخصيًّا سأكون في غاية السعادة لو أني شاهدت ماراثون ينتهي في عشر دقائق، أو شاهدت أحدًا يرمي الرمح لمسافة خمسة كيلو مترات، أو كيف تتصارع كتلة اللحم اليابانية مع الكتلة

الألمانية في الحلقة، أو كيف تتمكن هذه الكتلة مـن تـسلق جبـل "إفرسـت" مـن دون الحاجة إلى الأكسجين، أو مع كتم النفس.

أتعرفون أن الإنسان على الرغم مـن كـل شيء يميـلُ إلى أن يـرى الأشـياء تنمـو أمامه بشكل معين، فإنه ينفق أكبر جهـده في تعليـة الأسـوار التـي سـيقوم لاحقًـا بتحطيمها بصعوبة شديدة. دائمًا ما كنتُ أؤكدُ عـلى شيء واحـد؛ أن العقـل قائـد جيد، وهو أمين لجنة السياسات، وهو رئيس الحزب، وهو الجنرال. أمَّا الجسد فهو المجتمع الذي يجيد كل من أفراده شيئًا بعينه، أنـتم تعرفـون ذلـك، لكنـي أسـأل لماذا نُقاوم بلا داعٍ إثبات ما هو حقيقي للذات... فـتح صـانع الحلـوى التلفزيـون على برنامج يُسمى "نطبخ مع الممثلين"، حيث قام شـخص مـا بـصنع شيء فظيـع. مرَّة أخرى ظهرت في عين صانع الحلوى نظرة حزن يُرثى لها. كان ينظرُ إلينا كلحام الألمونيوم القديم الذي أصابه الوهن من استنشاقه المستمر للألمونيوم.

فضلنا المغادرة.

يا "آنَّا"، يجب ألا تنشأ بيننا أي قصة. لديَّ خبرة في هذا الأمر. حتى هذه المـسافة العادية من متجر الحلوى إلى حفلـة سمـسار العقـارات، يُمكـن أن تُنبـت لنـا وحـشًا بعشرة رؤوس. إنه سيبدأ في الظهور بـشكل غـير ملحـوظ تمامًـا. فالقـصة سـتعلق في مكان ما من أروقة الزمن ثـم تبـدأ في النمـو. يُمكننـا الآن أن نلاعبهـا، ولكنهـا سـتبدأ

بالتفرع والتغلغل في داخلنـا، وتتحـول إلى عاطفـة، وإلى ذكريـات، وإلى حـب. وفي النهاية ستقبض على أعناقنا، وسـتجبرنا عـلى اسـتعادة الـذكريات، وعـلى المقارنـة، وعلى أن يلوم كل منا الآخر على بعض الأخطاء الصغيرة. ستعضنا وتمتص دمنا مثل "لانس أرمسترونج"، أو ربما أسوأ.

يا "آنَّا"، أنا أعرف هذه الحكايات. لقد سـبق وأخبرتـكِ أني أديـب (كـان عـلى أن أنتظرَ لبعض الوقت حتى تنتهي "آنا" من الضحك فهي لا تـصدق ولا كلمـة واحـدة مما قُلته). لكن هذه هي الحقيقـة، فعنـدما كنـتُ في الخامـسة عـشرة مـن عمـري كتبتُ رواية تاريخية من سبعمئة صفحة بعنوان "أخت هتلر"، في شكل أدبي محبب تتناول مصير إنـسان صـغير عـلى خلفيـة أحـداث عظيمـة (خـذي أحـداث الحـرب العالمية، أضيفي إليها شخصًا صغيراً، واجعـلي الأحـداث تتنـاوب بيـنهما بنـسبة 3:4 حتى تصلي إلى الرسالة المطلوبة). بعد عام من ذلك أصدرت رواية غرامية ذات بُعد فلسفي بعنوان "الحب خلف الستار الحديدي"، والتي حققت نجاحًـا كبـيراً (تـدور أحداث الكتاب المؤلف من خمـسمئة صـفحة حـول الكلـمات الأربـع التـي تُـشكل عنوانه، وإذا أردتِ أن تفعلي شـيئًا كهـذا، فالوصـفة كـما يـلي: الـشيوعية، والحـب، والبعد الفلسفي، وتجعلين الأحداث تتناوب بينها تقريبًا بنسبة 3:4:1، حتـى تـصلي إلى الرسـالة المطلوبـة)، لكـن عنـدما بلغـت الـسابعة عـشرة مـن عُمـري، وبـدأت

أفهـم الحيـاة، أصـبحت أشـعر بـالمرارة. فجـأة رأيـتُ أنـه لا يوجـد فـرق كبـير بـين الهولوكوست وفيلم "المتحولون" Transformers.

كلاهما ينتمي إلى عالم آخر بعيد وغريب. نحـن في حاجـة إلى الحكايـات، فلـم نعد نستطيع العيش مـن دونهـا - مـثلما لا يُمكـن للحلـواني أن يعـيش مـن دون السكر، أو اللحام من دون الألمونيوم. يبدو لنا أن هويتنا، جذورنا وماضينا يُطِلُّـون علينا من خلالها. لكن كل هذا كذب، يا "آنَّا"، فكل منا يرى الآخر بـشكل خـاطئ. فكل هذه الحكايات لا تحمل نظرة ثاقبة إلى الماضي، بل تحمـل هـذه النظـرة إلى جوجل. فالواقع ليس له حكاية. هناك فقط عدد لا يُحصى مـن القـصاصات التـي يتم تجميعها لِتُكون أشكالًا جديدة في هذا المِشكال[2] المجنون لحياتنا القصيرة.

إن كل شر يتحوَّل إلى رومانسية منحرفة. إلى مُنتَج. إلى مقالـة كوميديـة قابلـة للتداول. إن هتلر هو المنقِّذ الحقيقي لعملية التسويق لأي منتج. أطلـق عـلى أي شيء اسم هتلر وستربح. يا "آنَّا" صدقيني.. إن الناس يسيرون خلـف هتلـر كـأنهم يسيرون خلف فتاة جميلة. حركي هتلر يمينًا وشمالًا، وسيتابعه الناس كأنهم يتـابعون مبـاراة في التـنس. إن كـل الشخـصيات التاريخيـة تتحـول إلى علامـات تجاريـة، إلى

(2)- هو أنبوب مرايا يحتوى خرز مُلوَّن، وحصى حر. كلما تم تحريك الأنبوب بشكل دائري، يستطيع المشاهد رؤية الأشكال بألوان وأنماط مختلفة.

رمز حزين لاثنين أو ثلاثة من الاقتباسات في موسوعة ويكي. إلى شيء يُمكن أن تأكله بشهية، بسهولة، بسرعة، وتهضمه جيدًا. لاحظت ذلك في إحدى الأمسيات الحزينة بشكل خاص، حيث كانت رياح الخريف تجعل صوت اهتزاز فروع الأشجار وصرير جذوعها يملأ المدينة. وصلتُ إلى منزلي، وأوقفت السيارة ماركة "بيكاسو"، ولأني كنتُ أشعر بالحزن فقد شربت زجاجة من كونياك "نابليون"، وبعدها شربتُ أيضًا نصف زجاجة من فودكا "أموندسن". لم أجد في الثلاجة شيئًا سوى كُرات من شوكولاتة "موتسارت"، وجبنة "شارل الرابع" منتهية الصلاحية، ودونات مقضومة من نوع "رامبرنت"، وكيس حبيبات طعام القطط من نوع "ماتيس". قمت وأنا في حالة من الوهن الشديد بتكسير الثلج في خلاط "بوش" لأضعه في كوكتيل "همنجواي"، وأخيرًا (لأن هذه الفترة كانت سيئة حقًّا) سكبت الماء الذي استخدمته للحلاقة على نفسي، وسقطت منهارًا على الأريكة وأنا أسمع صوت تشويش التلفزيون القديم البائس ماركة "تسلا". نمتُ متعبًا بعد أن مررت بأوروبا كلها.



انتبهي يا "آنًّا"

فالعالمَ يُحيطِ بكِ



راقبيه قليلًا بدلًا منِّي. إنها تُمطر مطرًا خفيفًا. بدت الطرق الأسفلتية بعد سقوطه كالمرايا، تنعكس عليها صورة المدينة وقد انقلبت رأسًا على عقب، بينما تتحرَّك الغيوم، فتكشف من حين لآخر عن جزء من قرص الشمس، لم يعد مزاجنا سيئًا. هناك عند كشك بيع الصحف توجد صحيفة تُطل من صفحتها الأولى صورة الممثل الكوميدي وهو ينظر مرتبكًا، فقد قام مرَّة أخرى بممارسة الخيانة العاطفية في حق شخص ما. قُمتُ بشراء نصف لتر من "الروم"، ثم ذهبنا إلى الحديقة التي كانت مبللة بفعل المطر. هناك قطرات ضخمة من المطر تتلألأ في الشمس على أوراق الأشجار. أخذنا نشرب الروم، هذا العنبر الزجاجي، عُصارة أعياد الميلاد، خلاصة عطر اللوز، إن طعمه كطعم أيام الطفولة. يا "آنَّا"، أنتِ تُغمضين عينيكِ، ومن حولك ليلة شتوية حالكة الظُلمة مثل "مُربع ماليفيتش"[3]. الأطفال يكتمون أنفاسهم، ويطوفون حول المنزل كيسوع الصغير، لا أحد منهم يعرف شيئًا بعد عن قوَّة الجحيم، ربما الأب والأم هما فقط من عايشا جحيمها الخاص، لكن الأطفال ما زالوا أنقياء، يحلمون أحلامًا عذبة كالروم.

يا "أنَّا"، استيقظي.

قلت وأنا أضحك:

(3)- هي لوحة فنية للرسام والنحات السوفييتي **كازيمير ماليفيتش** (1879-1935)، وأهو أحد أعلام الفن التجريدي الهندسي، وأحد فناني البنائية الروسية، وهذه اللوحة عبارة عن مربع أسود على خلفية بيضاء.

- لا يُمكننا أن ننام هنـا. إن خـشب الأريكـة قـد صـار أسـودًّ، وليـّنًـا مـن المـاء. الأعشاب تصدر حفيفها، وضوء الشمس يزداد دفئًا، والبخـار يتـصاعد مـن الطـين. أخذت أتفحصها. إنها تنام ورأسها على كتفي مغمورة بضوء يوم جديد. ذات مـرَّة سأكتبُ كتابًا عن زاوية شفتيكِ، عن هذه التجعيدة الصغيرة التي طلت لتوِّها بين حاجبيكِ. يا "آنَّا"، من أين جئتِ بها؟ لقد اعتدتُ على حيـاتي مـثلما اعتـدتُ عـلى تجويف فمي، ولكن عندما ظهرتِ أنتِ شعرت وكأنهم حشوا لي ضرسًا.

إذًا هيا.

إنك تنظرين إلى الشمس، وتضحكين وأنتِ شبه نائمة.

نسير عبر المدينـة، ومـن حولنـا كـل هـذه الأشـياء، انظـري. رفعـت شاشـة تليفوني فبدأت كل المنازل تتحدث وتعـرض عـليَّ بـضاعتها، فـالمطعم يتحـدث كنادل حقيقـي مُـصاب باللعنـة، ويعـرض عـليَّ قائمـة طعامـه، وكـذلك سـيارة التاكسي توضح لي تكلفة الرحلة إلى المطار. أرى أنه هناك خلف الجدار يجلس صديقي – الذي لم يسبق أن رأيته يومًا من قبل، ولكنا نتشاطر معًـا كثـيرًا مـن الأشياء – إنه يرفع إبهامه مادحًا العرض الـصباحي للفنـان الكوميـدي، والـذي يُتابعه على التابلت الخاص به. في زاوية التابلت يكتبُ لصديقه الأوزباكـستاني على الجانب الآخر مـن الكوكـب. إن العـالم غنـي جـدًّا، يـا "آنَّـا". لقـد أضـفنا إليه مستوى آخـر مـن الواقعيـة يجعلنـا نـستمتع بـه ونكتـسب المـال، علينـا

فقط أن نُقلع عن تناول الطعام وعن التَّنفُّس وعن بعض العادات التاريخية السيئة، وسنكون حقًّا سعداء. إن هذا يُناسبني كثيراً، فعندما كنتُ طفلًا، كنتُ أحبُ بناء الأشياء من المُكعبات، اليوم يُمكنكِ أن تبني حياتك كلها. أُراهنكِ على أي شيء أن جارك يعيش في عالم مختلف عنك. بالمناسبة لقد اكتشفتُ مؤخرًا أن جاري هو واحد من كبار مبرمجي الكمبيوتر، ولقد وصل إلى الشهرة بطريقته الخاصة. يُدعي "ميشا"، وعمره ثلاثة عشر عامًا، إنه شفاف بالكامل، وإذا وقف في مواجهة الضوء فسيُمكنكِ أن تري العمليات الكيميائية وهي تحدث في أذنيه وجبهته المتعبة، وكذلك شرايينه وأوردته وهي تنبض باللون الأزرق البنفسجي.

يا "آنَّا"، في أحيان كثيرة أشعر بأنني أحنُّ إلى الواقع. منذ فترة قريبة دعاني صديقي سمسار العقارات إلى حفل. كان لقاءً لطيفًا لثلاثمئة وخمسين موظفًا من أحد فروع مكتب العقارات الذي يملكه. إنه يقوم بتوظيف الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر عامًا وخمسة وعشرين عامًا، الكبار لا يصلحون للعمل عنده. أوضح لي السمسار أنه بمجرد أن يكبر الشخص قليلًا، حتى تجده يبدأ في البحث عن مكان أخر، وهذا لا يُمكن التعامل معه، قالها ثم اختفى بين الحشد حتى نهاية الحفل. جلست إلى طاولة كان يجلس عليها بالصدفة بعض خبراء تكنولوجيا المعلومات الراشدين، كانوا في حالة سُكْرٍ شديد، وكانوا يتحدثون فقط بالرموز الرقمية، ولكن في النهاية

انتابتنا حالة من الكآبة إلى سيطرت علينا بصورة غير طبيعية. أخذوا يتذكرون كيف أنهم ظلوا ذات مرَّة طوال الليل يلعبون على الإنترنت لعبة يتبادلون فيها إطلاق النار، وبينما هم متعبون ويعانون من قلة النوم، وجدوا أنفسهم فجأة في مخزن غريب، مستودع كبير مهدم وصدأ، أو شيء من هذا القبيل، به طائرات ألمانية محترقة، وبقايا معدات عسكرية قديمة، والسقف نصفه مُهدم. كان هناك مطر خفيف يتساقط في الداخل، والسماء مختلفة الألوان مثلما يحدث عند بزوغ الفجر أو قبل حلول الظلام، خيوط الشفق المنفصلة، أصوات شوشرة في أجهزة الإرسال. كان عددهم خمسة، ولم يكن حالهم في أحسن حال، أحدهم كان مُصابًا بجروح خطيرة، وجميعهم تقريبًا بلا ذخيرة، بينما وسط هذه الخردة في الظلام تحرك "سايبورج".. هو ليس إنسانًا وليس آلة، إنه وحش ضخم، عضلاته ممزوجة بالمعدن، وفي يديه أسلاك وخراطيم، وجسمه يتغذى على البنزين أو شيء من هذا القبيل، مكان العين يوجد منظار أحمر، ومكان اليد مدفع، لا يجرؤون على النظر إليه طويلًا، فلو لمحهم سيقضي عليهم، إنهم يسمعون فقط وقع خطواته المُرعبة، وأزيز أصابعه الهيدروليكية، وأحيانًا يتوقف، فيسمعون كيف يقوم هذا الوحش بتوجيه آلية التقريب التي في عينه إلى مكان ما، مثلما يقوم مصور المشاهير "البابارازي" المؤذي بمسح الظلام المحيط به. إنهم لا يجرؤون على الحركة. يتبادلون الرسائل – أحدهم غاضب أنهم أهدروا كل الألغام

التي يُمكن تفجيرها عن بعد، وهنا كأن الـ"سايبورج" قد سمع شيئًا، فقد توقف وأخذ ينصت - كأنه يُفكر. لا أحد ينطق بكلمة، أخيرًا بدؤوا يسمعون وقع خطواته من جديد، صوت روافعه وأوتاره المُقوَّاة بالمعدن. كتب أحدهم: لديَّ قنبلة واحدة، وكتب آخر: لديَّ اثنتان، وهذا كل شيء. تشاجروا لبعض الوقت. إنهم يقتربون من النهاية، والآلة قوية جدًّا. وهنا يتدخل صاحب الإصابة الخطرة، هذا الذي وصل إلى اللون الأحمر، والذي تبقى له أربعة عشر بالمئة من الصحة، والذي يطلقون عليه اسم "زلفر"، قائلًا: "أنتم ستجذبون انتباهه بإطلاق النار، وأنا سأركض إلى هناك، وأختبئ خلف البرميل، وأفجرها، أعطوني القنابل. كتب القائد سريعًا: "لا تفعل هذا". لكن "زلفر" كان فجأة قد حسم أمره، وأصبح باردًا ومتقبلًا لمصيره. سادت لحظات من الصمت. ثم اقترب من يملكون القنابل، أخرجوها من تجهيزاتهم، وألقوها على الأرض أمام "زلفر" الذي أخذ يجمعها. ثم جاء القائد بنفسه، واقتَرَبَ كثيرًا حتى رأى بوضوع كل نقطة في وجه "زلفر". وقف كلاهما أمام الآخر، وصمتا، لكن للأسف لا يوجد في لوحة المفاتيح مفتاح يُعبِّر عن تبادل الأحضان. ساد الصمت، تساقط المطر من حولهم على برك المياه، أخذت هذه الخطوات المرعبة تبتعد في الظلام. قال شخص ما: "الآن". أطلق شخص آخر بضع طلقات في الظلام. ركض "زلفر". إنه يتوجه إلى مصيره المحتوم، لا يُلقي بالًا لأي شيء، ينطلق إلى الظلام، إلى معركته الأخيرة، لا يُفكر في

أي شيء، لقد أصبح طاهرًا، إنه فقط يحاول أن يصمد حتى يُدمر هذا المخلوق البشري الملعون، الذي تحول إلى آلة.

صمتنا جميعًا. نحن ما زلنا نجلس في حفل سمسار العقارات، لكن العالم من حولنا بدا كأنه لم يعد موجودًا، كأنه فقد معالمه. ما زلت أجلس مع هؤلاء الشباب وأنا في قمَّة التأثر. قام أحدهم وقد احمرَّت عيناه برفع كأسه، فقمت أنا بقرع كأسي في كؤوسهم جميعًا. كما لو أنني كنتُ معهم في ذلك الوقت، كأني عايشت معهم شيئًا حقيقيًّا، شيئًا يُمكن أن يظل محفورًا في الذاكرة.

يا "آنَّا" لقد كان هذا منذ زمن بعيد، منذ زمن بعيد لدرجة أنه لم يعد أحد يعرف في أي عالم رقمي استقر هذا الحنين وهذه المرارة. أنا دائم التفكير في المكان الذي سيكون من الجميل أن أعود إليه يومًا ما، أفكِّر في الركن الذي يمكنني أن أجد به حائط مبكاي، أن أعود إلى الوراء عبر ميادين ومستويات إطلاق النار، أسير في الاتجاه المعاكس كجندي عديم النفع، لا شيء يتربص بي في أي مكان، بينما تظل فصول السنة في مكانها. أرغب في الذهاب إلى هناك.. إلى أي مكان يُمكن أن أجد به حائطي، في مكان ما بين نقطتين ضوئيتين، أن أذهب بعد إطلاق الرصاص إلى هذا الصفر الرقمي لأهمس له بكل هذه الحكايات، بكل الأشياء التي لا أرغب في العيش معها.

"آنَّا"...

يا "آنَّا"؟

هل أنتِ هنا؟

أشعر بالخوف. ماذا عساي أن أفعل الآن من دونك.

يا "آنَّا"، انظري هناك، وهنا. نسير عبر المدينة ونراقب الأخطاء، إنها في كل مكان. لوحات إعلانية مليئة بالأجسام. بالفعل لقد بدأت الفترة التي أدرك فيها خبراء التسويق أن الكمال لم يعد يجذب أحدًا، ولا أحد يهتم به، فالمستهلكون المشبعون بالمظاهر الحسية ينجذبون أكثر إلى العيوب. لقد حلت الوجوه الممسوخة - على لوحات الإعلانات، وعلى شاشات التلفزيون والشاشات الإعلانية - محل الرياضيين الممشوقين، وعارضات الأزياء. انظري! هناك امرأة يبدو وجهها وكأنه قد مر بالجهاز الهضمي لإحدى آكلات العشب، والذي لها ما لا يقل عن خمس مَعِدَات. فمها مُتدلٍّ، أنفها مفلطحة، وحاجبها مُعلق في أعلى جبهتها. تُحاول إغراءنا بالتوجه إلى أحد البنوك. هذا الوحش يتحدث إلينا بالأرقام. هناك سهم بفقاعة ينتهي عند فم المرأة، كُتب به سعر الفائدة البنكية. وهناك إحدى المحطات الإذاعية وضعت إعلانًا لبرنامجها الصباحي المليء بالرفاهية والأغاني والمذيعين المَرِحين (الفنان الكوميدي + بعض الشجيرات) مع شعار يقول: "بَدلْ ابتسامتك"، الذي قررت استخدامه في حملتها. كانت المدينة مليئة بملصقات لمتحولين بائسين، ولمخلوقات مشوهة كأنها من ألبوم صور

لجرَّاح تجميل مُختل عقليًّا، كأن مصمم الجرافيك قد قام بقطـع رأس جـد عجـوز أصفر اللون تتمدد البقع الـسمراء عـلى رأسـه الأصـلع كـما تتمـدد القـارات عـلى مُجسم الكرة الأرضية، ثم لصق تحت أنفه فم طفل رضيع ضاحك يـسيل اللعـاب منه، ثم وضع للرضيع فك لرجل قوي يُحيط به ذقن كثيف، وقـام برسـم جُـرح في الجزء العلوي منه. إننا نرتدي الملابس النظيفـة، نُمـضمض أفواهنـا بغـسول الفـم، نحلق كل شـعرة في أجـسامنا، نبتلـع أقـراص فيتـامين C لـصحة أفـضل، وأقـراص فيتامين E، والـلـه أعلم لماذا، والكالسيوم للعظام، وحمض الفوليك للدم، وعشب "الجنكة بيلوبا" للحكمة، وُمستخلص الشاي الأخضر للخلود، إلخ، إلخ. ثم ننطلـق إلى السينما لمشاهدة فيلم عائلي عن الهولوكوست، أو عن انقراض 99% من البشرية، أو عن تدمير الحضارة كلها بواسطة بعض الوحوش القادمة من أعماق الكون.

"آنًّا".. إنكِ مثلي تُحبين الذهاب إلى الأفلام التي تتحـدث عـن تـدمير البـشرية، وكذلك الأعمال الفنية المتشابهة. لدينا كثير من الأشياء المـشتركة. أنـت سـعيدة في هذا العالم لأنكِ تفهمين تنوعه. فليس كل إنسان يستطيع أن يـسبح في هـذه الـلا نهائية بمثـل هـذه الرغبـة. ذات مـرَّة سـأل الفنـان الكوميـدي في برنـامج "نطهـو مع الكوميديان" أحد الـساسة أثنـاء تقليـب مـرق الـسجق مـع البطـاطس قـائلًا: "لماذا تعتقد أن الناس يحبون الحرب إلى هذه الدرجة؟"، فقال السياسي: لا أعـرف (جبهـة تتـصبَّب عرقًـا، أصـابع خلـف ياقـة القمـيص، سـحابة مـن الأبخـرة

تتصاعد مـن مـرق الـسجق)، أنـا لم ألحـظ أن النـاس يحبونهـا" (ابتـسامة، عـرق، شارب). فقال الفنان الكوميدي: "مع كامل تقديري لك فأنت لا تفهم شـيئًا. إنهـم يُحبون الحرب لأنها سهلة، أسهل بكثير من الـسلام. لا يُمكنـك أن تتخيـل كـم مـن الناس اليوم يتوقون سرًّا إلى النظام الشمولي. يتوقون لحـدوث شيء مُـروِّع. إبـادة جماعية. إرهاب أو ما شابه ذلك. لقد تعبـوا مـن هـذا الغمـوض، فهـم لم ينـشأوا عليه. رفع الكوميديان المغرفة، وأمسك بغطاء القدر، تذوق الطعام، غير راضٍ عـن الطعم، بينما استمر السياسي في تقليب الطعام بمشقة (عـرق، شـارب، ابتـسامة – بعد ذلك شارب فقط). واصل الكوميديان حديثـه قـائلًا: "إن أجـسامنا هـي آلات نستخدمها من أجل البقاء، ثم لف ذراعه بوُدٍّ حول كتفي الـسياسي، إننـا نملـك في داخلنا مخزونًا هائلًا، فأجسادنا مثل الأسلحة تجعلنا مستعدين للقتـال ولمواجهـة الأزمات. إن أعضاءنا لم تُخلق للرفاهيـة، فالعقـل يـشعر بالملـل الـشديد؛ فعنـدما يفتقد الشمولية فإنه يصنع شموليته بنفسه. العقل كائن رأسمالي. برجوازي سـيئ يحتكر الوقت. يستغل الجسد كله لتحقيق أهداف خاصـة غامـضة. يُـسيطر عـلى كل وسائل الإنتاج والإنجاب، ويُجيد التحـدث، ويجيـد الخـداع، ويمكنـه أن يقـود بقية الجسد إلى الموت من أجل قيمة غير مادية. إنه يستطيع من أجل البحث عن الخلاص الروحـي، الـذي ضـاع بـسبب الرغبـات المادية للأمعـاء والمعـدة، مـن أن يُرهـق هـذه الأعـضاء، بـل ويرهـق نفـسه أيـضًا. فهـو يُجـبر لاعبـي

اليوجا المساكين على أن يضعوا أيديهم فوق رؤوسـهم لثلاثـين عامًـا حتـى يتحـوَّل الواحد منهم إلى غصن من العظام المتعفنة وهو على قيـد الحيـاة؛ يُجـبر فاقـدات الشهية على الذبول؛ والرياضـيين عـلى الانتفـاخ كالبالونـات؛ يُـسمم الجـسد كلـه بالخمور من أجل متعته الشخصية؛ يلـتهم الهرمونـات مـن الغـدة الكظريـة. إنـه وحش جامح مُتعطش للوقت، للذكريات التي يتبادلها بشكل محموم مع الأجهزة العـصبية الأخـرى. إن الجـسد، أيهـا الـسيدات والـسادة، هـو نظـام سـياسي، هـو دكتاتورية متعددة الخلايا، فخلاياه تُولـد وتمـوت في طاعـة وانـضباط، تكِـدُّ حتـى تُستنفد، وتموت بعد أن يطأها آلاف آخرون على الأرض؛ أمَّا هذا القلب المُتذبذب المجنون فلا نعرف من الذي قام بضبطه ومتى، هـذا الإيقـاع الـذي يُحـرك مئـات الثدييات منذ قديم الأزل، القلب يشبه بندول الإيقاع الذي يُغني فيه كل الجـسد أغنية الدم والحياة والعمل – هذه المقطوعة الموسيقية التي نعزفها هنا لم يعزفها "سيباستيان باخ" نفسه – تُغنيها أجساد الأجناس العليـا، أجـساد جـنس "هومـو"، فهـم يتعلمـون وظـائف أطـرافهم، وأمـاكن الفتحـات في أجـسادهم، وتـشكيلات جلـدهم، والمنـاطق النظيفـة وغـير النظيفـة بـه، والأمـاكن المحللـة والمُحرمـة، ويتعلمون الكراهية والخجل من الجسد؛ قَلِّبْ جيـدًا وإلا سـينفجر"، وهنـا أسرع السياسي الذي كان ينظر طوال الوقـت كـالمعتوه إلى الإمـساك بالمغرفـة، وقـال شـيئًا بمعنى: "إحم، إننا في المقام الأول نشعر بالقلق على الأسرة"، وأضاف (الشارب)، "وهو

إذا جاز التعبير نوع من الحفاظ على الحشمة الأساسية.. هو نوع من الحفاظ على الأطفال"... وبدأ يتفوَّه بكلام فارغ، حتى إنني اضطررت في النهاية إلى إغلاق التلفزيون، وتابعت لعب اليوجا، أو الـ"تاي تشي"، أو التَّنفُّس العلاجي على الرغم من أنني لا أفهمه كثيرًا.

⊙⊙⊙

نسير عبر المدينة ونرى كيف أن خبراء الإعلانات أصبحوا يميلون إلى النقص البشري، وأن هذا الميل جعلهم يكسبون كثيرًا من المال، والجميع كانوا يتطلعون لذلك. توقفنا للحظات أمام لوحة إعلانية بارتفاع مترين لرجال مُسنِّين يبتسمون في أضواء المدينة العملاقة، وقد احمرَّت وجوههم، وتدلَّت ألسنتهم، وظهرت لثاهم الخالية من الأسنان، بينما هناك خيط يتدلَّى من رؤوسهم الصلعاء، كل هذا لأنهم لم يقوموا في الوقت المناسب بالاشتراك في تأمينات المعاشات. تبادلنا القُبلات بين هذا الحشد من المتقاعدين المُشوَّهين، وكأننا في حديقة لأشجار البتولا. كان هذا رائعًا، فقد حدثت المعجزة، لقد كان عدد القُبلات في العالم أكثر من عدد النجوم في كل المجرَّات، تمامًا كما هو الحال الآن في هذه الغابة البدائية من الرجال المُسنِّين، لكن في شكلها الجديد. ربما يحدث للمرَّة الأولى أن يتمكن مثل هذا اللقاء الرائع لهذه الشفاه الغريبة من حجب كل هذا التَّشوُّه. بدأنا قليلًا في المُداعبة. أدخلت يدي تحت تنوُّرة "آنَّا"، قبَّلتها تحت صورة هؤلاء المُسنِّين الذين تحولوا إلى اللون الأحمر

كأننا نقف أسفل شجرة الكرز المزهرة. يبدو أنني وقعت في الحب يا "آنا". لكنها أخذت تتملَّص منِّي، فنحن لسوء الحظ لسنا في الغابة، نحن واقفون على محطة الترام. يجب أن نذهب، لم يعد هناك وقت، فبعد قليل سيشتعل جحيم الصباح، وسيجف المطر في الأحراش مثل جهازنا العصبي الهش الذي يُعاني من قلة النوم. نسير عبر الشوارع التي بدأت تعج بالبشر، كل منهم يسير وفق رأسه الذي يدور به أشياء مفزعة لا تُريدين أن تعرفينها ولو بلا مُقابل، وعلى الرغم من ذلك، لا سبيل أمامك للفرار منها. تمامًا في مثل هذه التوقيت وبشكل منتظم أبدأ في الشعور ببؤرة الصداع النصفي في منتصف جبهتي، إنها بيضاء كعين السمكة المطهية.

قبل أن ألتقي بكِ يا "آنَّا" كنتُ أُعاني من صداع فظيع في الرأس، لدرجة أنني لم أكن أرى أمامي من شدته. إن العالم كله قد علق في داخلي، وحُشرت شوكته في داخل جُمجمتي، فحتى أنا أحمل في داخلي هذا العالم اللا متناهي، حتى أنا ممتلئ بالأشياء الغريبة التي لم أطلبها يومًا، والتي غالبًا ما تتجمع في شكل يسبب الألم. لكنكِ جئتِ إلى كالسامري الصالح، كالبلورة المسحورة، كالبرد الذي يُرطب لسانك عندما تبتلعين واحدة من رقائق الجليد. معكِ شُفيتُ من كل آلامي. فأنا أستطيع التحدث إليكِ، وأعلم أنكِ تسمعينني.

إن الناس يميلـون إلى الوحـدة بـشكل فظيـع يـا "آنـا". ليـست الوحـدة بـالمعني المعروف، والتي يتناولونها في قصائد الشعر وفي الصحف الصفراء. إنهم وحيدون مع عالمهم، مع بنيتهم الفوقية، التـي لا أحـد خلافهـم يفهمهـا. أو يتـشاركها معهـم. إن الطيور تقوم ببناء أعـشاشها فـوق قمـم الهوائيـات، ولا يُهمهـا مـرور الإنترنـت مـن خلالها، وأن مرور الكوميديان يحدث كسماع رنين معدني خفيف، مثل انزلاق لسانك فوق بطارية. الطيور لا تهتم أن يقوم أحد ما بتحميل فيلم جنسي، إنهم أنقياء وأحـرار؛ كذلك تعلمت الذئاب أن تعيش في صناديق القمامة، وهنا يميل لونها إلى الحمرة بسبب جلوتومات الصوديوم الموجودة في بقايا الطعام، وتمـلأ الجـروح ألـسنتها مـن المعلبـات، وتعوي متوجهة إلى القمر؛ وعلى الرغم من تحوُّل البقرة إلى آلـة لإنتـاج اللـبن، فإنهـا لا تعرف ذلك – لا تعرف أنها تُرضع نـصف كوكـب مـن القـرود، الجالـسين إلى الإنترنـت، ويحلمون أحلامًا بيولوجية واعية، وكل منهم يُراقب بقرته في المرعى عبر كاميرا الويـب، ويلاحظ إذا ما كانت تعيش بطريقة سليمة، وإذا ما كانت تَرْعَى وفقًا للكتـالوج الـذي حصل عليه عند مشاركته في المظاهرة التي كانت تطالب بحقوق الحيوان.

إن الإنسان هـو النـوع الوحيـد المُهـدد بـالانقراض عـلى هـذا الكوكـب. فهو شديد الخوف على عالمه. فإذا اختفى هذا الإنسان، فإن كل المخلوقات التي تعيش في هـذه البيئـات البيولوجيـة لـن تهـتم لأمـره، فهـي لا تـدري بمـا يحـدث، وبالتأكيـد أيـضًا أن الغابـة لـن تعـترض، فلـم يعـد

يوجد بها هذا المخلوق المُسيطر الـذي يـسير بهـا حـاملًا بندقيتـه، ويراقـب حالـة الحيوانات. فإن كل المخلوقات الأخرى سترتعش قليلًا، تنـتفض لتـتخلَّص مـن كـل الأسماء وكل المفاهيم وكـل التـصنيفات والانـتماءات غـير الـضرورية، وتنـدمج في وحدة واحدة – في الحقيقة هي كانت دائمًا هكذا. نحن وحيـدون يـا "آنَّـا"، هـذا الإحـساس يبعـث عـلى الـشعور بـالبرد. إن الإنـسان قـد اعتـاد أن يطلـق القـردة والكلاب وأشياء أخرى إلى الفضاء، حتى نفسه، كـما اعتـاد أن يُرسـل عـبر الراديـو مقطوعات موسيقية مشفرة لـ"موزارت"، ويُرسل كذلك صورة الموناليزا عبر الماسح الضوئي – إن هذا يجعلني أوشك على البكاء، لأنه شيء مؤثر جدًّا – إنه يتوقـع أن يجد هناك في مكان ما من دهـاليز المجـرَّات شخـصًا وحيـدًا مثلـه. إنـه نـوع مـن التواصـل بـين المجـرَّات، نـوع مـن التـودد عـن طريـق المقـراب الإذاعـي "راديـو تيليسكوب". نحن ننظـر إلى فجـوات الفـضاء شـديدة الـبرودة وشـديدة الـسواد، ونعزف مقطوعات "موزارت" كما تعزفها الأطفال، لكي نـتخلص مـن الخـوف مـن الظـلام. ونعـرض عـلى مجـرة درب التبانـة - وكأنهـا أمنـا أو مدرسـتنا - صـورة للموناليزا، وننتظر المكافأة، إلا أن مجرة درب التبانة ستنظر إلى هذه الصورة بتبلد ولا مبالاة، كما لو كنا نعرض صورة إنسان الغاب على حصان.



بالمناسبة، في وقت ما من بداية القرن توقف أحد الخيول، وبدأ يفكر - ابحثي عن الأمر على "جوجل". بدأ يجمع ويضرب ويقسم، فساعده سيده، عالم الرياضيات المعروف "ويليام فون أوستن" على حفظ جدول الضرب، وأطلق عليه اسم "هانز الذكي"، وبدأ يربح المال من ورائه. تقريبًا في الفترة نفسها - ربما لكي لا يبقى في المؤخرة - بدأ أحد الكلاب في "مانهايم" في التفكير، كان يُدعى "رولف"، وترك بعده كتابًا يتضمن مذكراته وكمًّا كبيرًا من المُراسلات. كان يضرب الأرض بمخلبه، وبهذه الطريقة كان يُفكر ويتكلم - حتى إنه كان يتكلم بنبرة خادعة. عندما شعر الكلب في نهاية حياته بالاستقرار تحول إلى شاعر، وقارئ نهم، ومعلِّق على الأحداث السياسية، وتعلم عددًا من اللغات؛ ووفقًا لشهادة سيدته التي كانت تصطحبه إلى الخارج لقضاء حاجته، فإنه بدأ في وقت لاحق يشعر بالمرارة وأصبح متجهمًا وعابثًا، ثم بدأ ينخرط في دراسة الفلسفة واللاهوت، كما كان يُفكر في سبب وجوده في الحياة، لدرجة أن سيدته كانت تشعر أمامه بالخجل بسبب اهتماماتها السطحية.

أتضحكين يا "آنَّا"! يمكنني أن أقسم لكِ أن هذا حدث. لقد كانت نهاية "هانز الذكي" نهاية بائسة، أضر نفسه.. لقد قام السايس المهمل أو الحقود (كان الحصان أفضل منه بكثير في إجراء العمليات الحسابية) بأخذ الحصان إلى ساحة الخيل، عندها فقد "هانز" البكر الذي عاش حياة الرهبان من دون أنثى، مُكرسًا حياته للعلم وللعمليات الحسابية

الخالصة، عقله وبسبب هياجه الشديد اصطدم بحاجز الإسطبل فَشُقت بطنه. وكان عليهم أن يُعيدوا أمعاءه إلى الداخل، ويقوموا بخياطتها. قضى أكبر علماء الخيل في الرياضيات ما تبقى من حياته في بؤس يرعى الكلأ في المنطقة الخضراء، في المروج على أطراف المدينة. عاد "هانز" العجوز حصانًا مرَّة أخرى. أمَّا الكلب الحكيم فقد أصابه الحزن وتوقف عن الكلام، وعادت البشرية مرَّة آخرى وحيدة وسط هذا الكون المُتجمِّد اللا مُتناهي، حيث هناك جلبة كبيرة قادمة من أعماقه تتربص به.

لقد كان هذا منذ زمن بعيد جدًّا. نحن الآن نجلس منذ عدة ساعات على الأريكة عند صديقي سمسار العقارات. في إحدى شققه التي لا حصر لها انتهت الحفلة التي استمرت لثلاثة أيام. إن سمسار العقارات يُتاجر في العقارات. يمتلك كثيرًا من العقارات. بمجرد أن يبيع عقارًا منها، يشتري على الفور واحدًا جديدًا. يسكن في وسط المدينة، مملكته كبيرة ومتغيرة. إن السمسار يخاف على وقته، ولذلك فهو يُعد لكل شيء مُسبقًا. الآن سيستريح لخمسة أيام بطرق مختلفة، ثم يبدأ في العمل لساعة ونصف الساعة، ثم يأخذ إجازة لمدة ثلاثة أسابيع، وبعدها يذهب لغداء عمل، ثم يُسافر بالطائرة لقضاء أربعة عشر يومًا على شاطئ البحر، وهكذا باستمرار. يمتلك السمسار هكتارات من الشقق، وكيلو مترات مربعة مقسمة إلى طوابق في مباني المدينة. بعضها يتركه طويلًا من دون إيجار مُتعمدًا. يتركها خالية، ليمر بها واضعًا يديه خلف ظهره مثل "نابليون"، ويُفكر في الزمن الذي تسلل من بين هذه الغرف. إنه

مُصاب بهاجس الوقت. يمشي في شـقته التـي تتكـون مـن 2187+3672 مـتراً، والتـي يقتطع منها في بعض الأحيان شقة تتكون مـن 1+3 (ثـلاث غـرف + مطـبخ)، أو 2 + KK (غرفتين + مطبخ في داخل غرفة المعيشة) أو استوديو، يُقـيم بـه مثـل الـسحالي ثلاثة من طلاب كلية الآداب، أو خمسة عشر مـن العـمال المولـدوفيين. يُمـارس دوره المتعدد.. يقوم بتهوية الشقق، ويترك جدرانها لتبرد. فعلى كل واحد منها توجـد بقايـا السكان، بقايا عالمهم الذي صنعوه بين هذه الجدران.. لقد غادروها من سنين، ولكـن بقاياهم ما زالت كامنة في الغرف مثـل جـذور الأشـجار المقطوعـة.. كـل ممارسـاتهم الغامضة، كل حركاتهم التلقائية، كل مساراتهم وطرقاتهم، ملايين من حفلات العـشاء العائلية، وملايين المُضاجعات، والصفعات، والقُبلات، والمُصافحات، والابتـسامات. كـل مساحة منها شهدت الكثير والكثير من الحكايات، مما يجعل الإنسان يُصاب بالدُّوار.

انتهى بنا المطاف في واحدة من شقق السمسار، وبينما كنـتُ ألقـي محـاضرتي عــن شــعور البــشرية بالوحــدة، وعــن أن الوحــدة قــد أجــبرت الحــصان عــلى التفكير، شربتُ نصف لتر من مشروب "كونياك البيض"، لأنه لم يكـن لـديهم شـيئًا سواه هنا، في تلـك الأثنـاء كـان الجميـع قـد نـاموا. فقـط في الـركن كانـت هنـاك سلة تهتز، رأسها إلى أسفل في بركة مـن مـشروب "الـروم"، الـذي عـلى الأرجـح أن

"رورشاخ"[4] هو من سكبه بنفسه، كان وجه السلة باكيًا، وهي تُحاول أن تُسر بشيء ما إلى بركة "الروم".

حتي أنتِ يا "آنَّا" نمتِ لبعض الوقت. كنتِ ترتاحين بجانبي، ويبدو أنكِ شعرتِ بألم في يدك بسبب وضع النوم هذا. لقد مسحتُ على شعرك. بدأ الليل، كان صوت الرعد يُسمع قليلًا. في الخارج يُسمع صوت طائر "الولوال"، أم ماذا.. "تريويكي"، "تريوويوكي - تريكيكي"، يا لها من أصوات. استيقظي يا "آنَّا"، لا بد أن نذهب. كان السمسار قد بدأ يتجول في الغرف المجاورة، ويُري الشقة لبعض المهتمين. إنه يُهددنا، إذا لم ننصرف فسيبيعنا نحن أيضًا. الحفلة ستنتقل إلى مكان آخر. من الأفضل أن نذهب الآن. وقبل أن نهبط الدرج إلى أسفل، كان المطر قد بدأ في التساقط، قطرات كبيرة تتحطم على الأرض، تنغرز في التراب وفي بلاط الرصيف الساخن. عَطَرّتْ رائحة الأسفلت. بسرعة لوَّحت لسيارة تاكسي. كان السائق هو هذا الرجل الطيب المُسن، فتح الباب وأصدار عدَّاد الكيلو مترات صوت صفير.

سألنا: ما وجهتكم؟ فأجبته بصدق بأني لا أعرف.

---

(4)- نسبة إلى "هيرمان رورشاخ" الطبيب النفسي السويسري الذي استخدم بُقع الحبر كمادة اختبار نفسي بعد تجارب استغرقت عشرة أعوام، بدأها عام 1911 في محاولة لاستخدام منبهات غير محددة المعنى، تسمح بانطلاق مكونات اللا شعور والتعبير عنها وانتهى إلى استخدام بُقع الحبر.

حُشر في داخل السيارة ما يقرب من عشرة أشخاص، بعض خبراء تكنولوجيا المعلومات الذين تعرفت عليهم في وقت سابق، السلة المبتلة من عناقها لبركة "الروم"، فتاتان عشيقتان من جماعة الأناركيين. كانوا جميعهم يصرخون، ويتشاجرون بسبب الفن والسياسة، ووجود الله. أحدهم يضع على حجره تلفزيونًا، لكي يصطحب معنا الفنان الكوميدي، وعبر فتحة في المقعد، رأيت السمسار يجلس في الصندوق الخلفي للسيارة. كان يتبادل الحديث مع فتاة جميلة كالغزال ذات عينين عميقتين. انطلق السائق، وأسرعنا لنلحق بحفل العشاء في مكان ما في قلب المدينة. أنتِ جالسة على حجري. أسندي ذقنك على كتفي، وراقبي هطول المطر المتزايد. الجدران مُبتلة، وفي كل مكان كانت أضواء إشارات المرور مُعطلة، وكذلك مصابيح الإنارة. المطر يحطم المظلات، ويفصل بلاط الأرصفة عن بعضها. لكن بعد قليل سينتهي كل شيء. لقد ابتعدت العاصفة كأنها صوت يتحرك بسرعة خمسة كيلو مترات. نسير بلا وجهة، هناك مصابيح ولوحات إعلانية، وأشرطة نيون تُضيء على جانبي الطريق؛ كان هناك رجل واقف بالقرب من محطة الوقود، يحرك يديه كأنه يهوي على وجهه، ونادى: "ما زلت تستطيع، ما زلت تستطيع، توقف!". في كل مكان هناك أشياء تحدث، في البداية بدأ الظلام ينتشر، وانتشرت في الهواء بقايا موجات كهربائية. كل شيء صار نظيفًا، بينما ما زالت الرطوبة تتبخر من الطين. الطيور تصيح في الأفنية الداخلية مثلما كان الحال

في العام الماضي، أو حتى من مئة عام، وأنا يا "آنَّا" لديَّ كثير لأحكيه، لكنني لا أستطيع لأن أحدهم ضربني بكوعه في ضلوعي عندما كان يتحدث عن عدد من ماتوا من البشر خلال الحرب العالمية الثانية، فقد صرخ المخرج الذي يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا قائلًا: "إن كل مشاكلنا مقارنة بذلك هي شيء مثير للسخرية". كان هذا المخرج يقوم بتصوير قصة سينمائية عن ابنة "هتلر" بالتبني، والتي يستعد فيه لكشف جذور الشر عن طريق وصفه لقصة حب بطلتها فتاة يهودية شابة، والتي بحركة قاتلة من عجلة التاريخ أصبحت عشيقته، إلى آخره، إلى آخره. من الواضح أنه قرر أن يضع في هذا الفيلم خبرته الحياتية كلها. لقد قرأ أيضًا كثيرًا عن هذه الأحداث على الإنترنت، ولكي يلفت انتباهنا صرخ قائلًا: "لقد قتلوا في "تربلينتسه" وحدها ثمانية آلاف شخص". هنا التفتت واحدة من الأناركيين وقالت بفزع حقيقي: "يا إلهي، وكأنهم قتلوا كل الموجودين على صفحة "سلافوي جيجيك" على الفيس بوك". ما زال السمسار متمددًا في الصندوق الخلفي للسيارة كأنه نائم على كنبة، ممسكًا في يديه بكوكتيل، كان قد اشتراه – بينما كنا نحن نصعد إلى السيارة - من البار الموجود بالمجمع السكني. يرتشفه في هدوء، بينما يخوض نقاشًا عميقًا مع غزالته حول فرضية الاصطدام الكبير.

قام شخص ما برفع صوت التلفزيون الذي يضعه في حجره، لأن الفنان الكوميدي كان في برنامج "مُعجزات الحضارة" يحكي قائلًا:

"في اليابان وُلِدَت طفلة، فتاة نشيطة تتمتع بصحة جيدة. نظرت بصعوبة ثم أخذت في الضحك. بدأت تضحك وهي في الشهر الثامن من عُمرها، واستمرت في الضحك بلا توقف لمدة أربعة عشر عامًا. إنها تضحك من دون إرادتها من الصباح إلى المساء, حتى أثناء نومها. لا تفعل شيئًا آخرَ، حتى استنفد هذا الضحك قواها. كانت تستيقظ في الصباح بصعوبة بالغة. لا تستطيع أن تأكل، فالطعام يسقط من فمها، وكان عليهم أن يقوموا بتغذيتها عن طريق الوريد. أنفق والد الفتاة كل ما يملكه من مال ليجري لها الفحوصات اللازمة للأعصاب، وتراكمت عليه الديون، لكن لم ينجح أحد في وقف هذا الضحك. عاشوا معًا على هذا الوضع، وفي الليل كانوا يسمعون أصوات ضحك لا تنتهي قادمة من غرفة الطفلة". موسيقى. لقطات من مظاهرات تُطالب باعتبار الإنترنت كائنًا حيًّا، وإدراجه في كُتب علم الأحياء. ثم فاصل موسيقي: أغنية مرحة. فرقة روبوتية من كوريا الجنوبية تُغني عن الحب والربيع.

في مكان ما على الجانب الآخر من السيارة بدأ البعض في الرقص في حدود الإمكانيات، بدأت الحفلة المسائية، وتوقعت هذا عند سماعي صوت فرقعة غطاء زجاجة شمبانيا. ما زال العالم يُومض في الخارج، إنه ما زال موجودًا. فتحتُ النافذة، فلم يعد التَّنفُّس ممكنًا داخل السيارة. يا "آنَّا"، إني في كثير من الأحيان أصبو إلى الحقيقة. أصبو إليكِ. أرخى الظلام سدوله. شددت الستارة التي كان أحدهم قد

انتزعها بحليتها، وارتداها بدلًا من معطفه. التحفنا بها، وبينما نحن في مخبئنا هذا يتفحص كل منَّا الآخر بطرق مختلفة، ويلتصق به بتحفظ كملعبين للتنس - كـان كل شيء فينا منظمًا بشكل جميل - كانت هنـاك أغنيـة تـصدح في التلفزيـون، في نهايتها ظهر الفنان الكوميدي، وقال: "في إحدى المـدن السويـسرية أُصـيب صـانع ساعات بالجنون، وقد علمت هذا من مصدر خاص". دوَّى صوت الرعد من خلف النافذة، فنحن في موسم الأمطار. وأنتِ تتعرقين قليلًا، وهذا الشيء أفضل من كـل الألعاب الموجودة بالخارج. من بين كـل الحقـائق الممكنـة أختـارك أنـتِ. تعانقنـا ونحن بين النوم واليقظة.

تُصبحين على خير يا "آنَّا".

ربما نصل إلى مكان ما في الغد.



القرين



جلست "أندريا" بجوار نافذة المقهى، كان ذلك مع قرب انتهاء فترة بعد الظهر، بعد انتهاء وردية العمل. في الخارج، رياح صيفية ضعيفة تتلاعب قليلًا بالأشجار، لكن من دون أي صوت. نوع من الكسل الخفيف. دخل "ماتيي" إلى المقهى وهو يلهث.

تبادلا القُبلات.

قال لها:

- إذًا أنتِ هنا.

أومأتْ "أندريا" برأسها وابتسمت. فهي هنا.

ابتسم "ماتيي" أيضًا. أخرج من جيبه عُلبة ورقية مربوطة بشريط أحمر. أزاحها على سطح الطاولة في اتجاه "أندريا". أمسكت بها في صمت وقلبتها بين كفيها، شيء ما تحرك بالداخل، واصطدم بجدار العُلبة.

سألته قائلة:

- أهي لي؟

أومأ "ماتيي" برأسه.

فكَّت "أندريا" الشريط، وفتحت العُلبة. يوجد في داخلها دبوس زينـة للـشعر. ثلاث وردات حمراء على بطانة بيضاء.

قال لها "ماتيي" وهو في حالة مزاجية رائعة:

- جرِّبيها.

ثم طلب لنفسه فنجانًا من القهوة.

لكن "أندريا" أغلقت العلبة. ما زالت تبتسم قليلًا، لكن هذه الابتـسامة أصـبحت فاترة. كرَّر "ماتيي" كل التعبيرات التي رُسمت على وجه "أندريا".

أخيرًا قالت:

- لقد جئتُ لأودعك.

فقال "ماتيي":

- أعرف ذلك، هذه هي المرَّة الثالثة.

ثم ضحك، لكن ضحكته بدت أشبه بالسُّعال.

- استغرق هذا فترة طويلة ...

- هل اتخذت قراركِ؟

أومأت "أندريا" برأسها.

قال "ماتيي" وهو يبتسم ويحتسي القهوة:

- أنتِ لن تذهبي إلى أي مكان.

أخذ يُراقب ردة فعلها.

خفضت "أندريا" عينيها. أخذ "ماتيي" يحاول بكل قوته أن يقرأ ما بعينيها، وما فوق شفتيها. أخذ يبحث فيها عن شيء يعرفه، يبحث عن أرض صلبة تحت قدميه.

وفي النهاية سألها:

- لماذا لم تجيبي على التليفون؟

- لقد استقلت من العمل. لديَّ رقم جديد.

- إذًا أعطيني إيَّاه.

هزَّت "أندريا" رأسها.

- حسنًا، على الأقل أجيبي على الإيميل.

ظلت "أندريا" في صمت تُمزق كيس السكر الورقي إلى مستطيلات أصغر وأصغر.

- إذًا الأمر جاد هذه المرَّة؟

أومأت "أندريا" برأسها.

قالت وهي تنظر إلى زوجين آخرين يجلسان على الطرف الآخر من المقهى:

- غدًا سأذهب ولن نلتقي مرَّة أخرى.

كانت تنظر إلى ظهر الفتى وإلى وجه الفتاة. فتاة جميلة، لكنها فاسدة على السطح. عيناها مسحوبتان بقلم رسم العيون، وشعرها مصبوغ باللون الأسود. أشعلت الفتاة سيجارة، وأخذت تشد نفسًا منها، لكن على ما يبدو فإن مذاق السيجارة لم يرُق لها.

قالت "أندريا":

- أريد أن أتأكد من مشاعري. أنا مُتأكدة.

- اسمعي يا "أندريا"، إن كلًّا منَّا يُحب الآخر. أنتِ هنا. وهذا هو المهم.

تردد قليلًا، ثم أضاف:

- وهذا دليل...

أومأت "أندريا" برأسها فهي لم تكن تريد تعقيد الأمور.

ابتسم "ماتيي"، لكنه بعد ذلك فقد تماسكه فتراجعت ابتسامته الكبيرة. فبعد أن أظهرت "أندريا" جديتها، أظهر هو أيضًا عدم اكتراثه. حولت "أندريا" بصرها عنه. كانت الفتاة الجالسة في الناحية الأخرى من المقهى تشد نفسًا آخر من سيجارتها. مدت ذراعها بامتداد مسند المقعد، لأن الدخان كان يؤذي عينيها. كانت "أندريا" تعرف كل هذا: إنها ترى ظهر الشاب الذي كانت الفتاة تومئ له برأسها، وترى الفتاة وهي تُراقب عيني الشاب، وكيف أنها تحاول أن تجد نفسها في كلماته وإيماءاته. رأت كيف أن الفتاة تُحاول أن تتحكم في تعبيرات وجهها لتظهر اهتمامها بما يقوله، وكيف أنها تُدخن من أجله السجائر التي لا تروق لها ولو قليلًا، ولكنها على الرغم من أنها غير مرتاحة، فإنها نجحت في أن تُظهر أنها تفعل كل ذلك غير مضطرة. بدت وكأنها أيضًا تُحاول أن تُحب صورتها وهي تُمسك بالسيجارة في يدها: صورة الفتاة الفوضوية الحلوة ذات سبعة عشر ربيعًا، التي يحرق الدخان عينيها الطفوليتين. لقد بدأ السباق للتَّوِّ – إنه يشبه قيادة الفورمولا-1، الكثير من المهام المتزامنة، إن المحرك يصرخ كنوبات الصداع النصفي، الأسفلت مُبتل، تنزلق عليه العجلات في كل لحظة حول المنصة التي يطل منها مليون من الأعين المضيئة كأنها أشعة سينية.

قال "ماتيي" فجأة وقد تيبَّس جسده كله:

- "أندريا"!

نظرت إليه مرتبكة. فأضاف:

- فلنرحل من هنا، أريدُ التحدث معك.

أومأت "أندريا" برأسها موافقة، فهي لا تُريد أن تُعقد الأمور، لكن لم يتحرك أحد منهما. كان "ماتيي" قد ابتسم - للمرَّة الأخيرة – ابتسامة كبيرة. ارتفع طرفا فمه كأن هناك من قام برفعهما برافعة من خلف الكواليس. ومرَّة أخرى فقد السيطرة على نفسه. فضَّلتْ "أندريا" أن تُشيح بنظرها بعيدًا. كان هناك شيءٌ ما يرتسم على شفتي الفتاة الجالسة في الجهة المُقابلة، وكأنها تأخذ أمرًا بذلك. يبدو أن الابتسامة التي كانت على وجه "ماتيي" قد انزلقت لتسقط على وجه الفتاة، وهناك تحجَّرت، وبعد قليل تلاشت بلا أثر.

الحديقة، الشارع، الأرصفة، الحواجز، المدينة. بالإضافة إلى الوادي. موقع جيولوجي يبدأ على الفور بعد المنازل الأخيرة. اكتشفوا في الأحجار بعض أشكال الحياة المندثرة: مثل القشريات السوداء ثلاثية الفصوص الملتصقة بحجر البازلت. في التجويف الصخري، تشكَّلت بركة من مياه الأمطار، هناك بجعتان مُسنتان تطفوان على سطحها الأسود. كانتا تهاجمان وتعضان الأطفال الذين جاؤوا من التجمعات السكنية القريبة لإطعامها. مر كل هذا بجوار "أندريا" دون أن تُلاحظه. حجب "ماتيي" عنها الشوارع والصخور والبحيرة، وحتى البجعتين الشريرتين.

حاول "ماتيي" أنا يستميلها بطريقة غير مباشرة قائلًا:

- إن علاقتنا لم تكن سيئة.

أومأت "أندريا" برأسها.

كرَّر كلماته كأنه يتحدث إلى نفسه:

- أترين، إنها لم تكن كذلك.

لكن الطريق كان من هذه الناحية مُغلقًا. طأطأ "ماتيي" رأسه مثل الكلب الشهير المرسوم على أسطوانات الجراموفون، لكن لم يصدر من "أندريا" سوى صوت طقطقة، فالإبرة ما زالت تقفز باستمرار في مجراها الوحيد على الأسطوانة محدثة النغمة نفسها التي تُشبه الفرقعة.

قال "ماتيي"، وهو يشعر بالتعاسة لافتقاده لوجود لحن معيِّن:

- هل فعلتُ ما يُغضبك؟

هزَّت "أندريا" رأسها، وابتسمت ابتسامة خفيفة جعلت الحياة تعود إلى "ماتيي".

فقال بسرعة محاولًا البحث عن الابتسامة التي اختفت من بين يديه:

- أنا أحبك.

لكنه لم يسمع سوى ضجيج وطقطقة.

قال "ماتيي" مرَّة أخرى، وكأنه يكرر هذا لنفسه:

- أتسمعين؟

لم يُلح عليها، إنه فقط يُحاول كسب الوقت.

انصرفت "أندريا" في صمت مُطأطئة الرأس.

قال "ماتيي":

- أنت لا تحبينني.

ثم طأطأ رأسه فورًا مثل الكلب لكي لا يسمع شيئًا.

لكن "أندريا" لم تقُل شيئًا. كانت تعرف جيدًا كيف سيجري لقاؤهما. فهي تعلم أن الأمر لن يكون سهلًا. كانت تحاول أن تخنق في داخلها كل الأوضاع والمواقف المهمة التي شهدتها علاقتاهما المُتلاشية، كأنها راقصة باليه غريبة الأطوار ترقص الباليه بحركات بطيئة ومُتشنجة على وقع خشخشة صوت الجراموفون.

قال "ماتيي" بصعوبة:

- "أندريا"، سأتغير. إذا كنتُ قد أخطأت، أخبريني. أنا أعرف كيف أتغير. سترين.

قالت "أندريا":

- أعلم هذا. أعلم، أعلم أنك قادر على هذا.

رددت ذلك بقليل من السخرية جعلت "ماتيي" ينتبه لها بكل حواسه.

قال بسرعة محاولًا التعامل مع هذه السخرية:

- لا يُمكن لإنسان أن يصل إلى درجة كمالك.

لكنه أدرك على الفور أنه ذهب في الاتجاه الخاطئ تمامًا. تذمَّرت "أندريا" قليلًا. شعر "ماتيي" بنغز في مكان ما بداخله. أصابه الفزع فقد كان هذا الشيء مؤلمًا وغير مفهوم.

قال بيأس تام:

- آسف.

لم تقل "أندريا" شيئًا. كانت تُفكِّر في كيفية إنهاء كل هذه الأمور في أسرع وقت ممكن. الأمر الأكثر صعوبة هو أن "ماتيي" كان حتى

هذه اللحظة يعتقد أنه يُجيد التعامل مع الناس، يُجيد التعامل مع النساء. كانت "أندريا" تأخذ في اعتبارها هذا الأمر. سرعان ما كانت معظم النساء تُعجب بـ"ماتيي". فمعظم النساء تُحب المرايا. فلم يكن سبب نجاحه هو جودة جوهره، أو آراؤه، أو طريقته في الحياة. لم يكن به شيء من الرجولة. ولا شيء من الأنوثة. لم يكن به شيء. كان محبوبًا لأنه يستطيع التكيف مع أي شخص. يستطيع الانسجام مع أي إنسان بسرعة كبيرة بسبب طريقة تفكيره، وكلامه، وتعبيراته، وإيماءاته، ونغمات صوته، وخفة ظله. أخذ يتحرك بسرعة في كل مكان كنادل تحت التدريب في أحد أفلام الرسوم المتحركة. يسير خلف صينيته، يُلبِّي طوال الوقت طلبات الزبائن، يميل إلى الأمام، يمسح جبهته من العرق، يُطقطق أذنيه لكي يسمع جيدًا ما يُطلب منه.

في البداية، كان كل إنسان يشعر بالراحة في تعامله مع "ماتيي". لم يكن يبدي مقاومة لأي شخص. لم يُمانع في شيء، كان مُنفتحًا ومرحًا، ووسيمًا جدًّا. على الرغم من أن قليلين هم من لاحظوا ذلك. كان كل منهم مشغولًا كثيرًا بمدى تأثيره السطحي على شخصية "ماتيي". لكن "أندريا" للأسف اكتشفت استراتيجيته مبكرًا جدًّا. شعرت لعدة أسابيع أنها وجدت الرجل الذي كانت تبحث عنه طوال حياتها، رجل يتمتع برجاحة العقل، لكنها بعد ذلك أدركت في ذهول أنها تُرافق نفسها. ففجأة أصبح "ماتيي" مُثيرًا للسخرية مثل ممثل البانتوميم السيئ الذي يُحاكي المارَّة في الحديقة.

بدأ الظلام يُرخي أسداله حول هذه البلـدة الـصغيرة التـي يـستحيل إيقاظهـا. سارا صامتين إلى محطة الباص.

قال "ماتيي" بصوت مُختلف:

- "أندريا"، ابقِ معي ولو قليلًا.

ثم أضاف وكأنه يُتمتم: إن الحافلة الأخيرة ستُغادر في الثانية عـشرة والنـصف، يُمكنكِ أن تبقي قليلًا.

سارا معًا عبر غابة سوداء من المصابيح. أعمدة إضاءة الشوارع الباسقة من الأراض الخاوية لا تعمل. شبكات المرافـق جـاهزة. تـم حفـر الأساسـات. الطـرق، والأرصـفة، وإشارات المرور. لكن لا وجود نهائيًّا للمنازل. إنه كابوس التطوير. أراضٍ غـير مبيعـة، ومبانٍ جديدة غير موجودة. تخفيـضات عـلى كـل شيء. كـل شيء مُغطًّـى بالعـشب كالسرطان.

أمسك "ماتيي" بيدها، تملصت منه وتابعت سيرها.

أوقفها مرَّة أخرى بحركة غير محسوبة.

قالت "أندريا" بحزم:

- اتركني.

لقد فاض بها الكيل. أدركت على الفور أن ما فعلته كان خطأ. شعر "ماتيي" بنوع من العدوانية اللطيفة في صوتها، فأمسك بها على الفور، وبدأ يتصرف كالمجنون.

ضم "أندريا" إليه بقوَّة. كانت تتوقع هذا الأمر. فعندما تعجز الكلمات، يُستخدم سلاح الجسد. بدأ "ماتيي" يتصرف بغلظة. نزلا على ركبتيهما، وتبادلا القُبلات، لكنهما كانا يسمعان في الكواليس صوت صرير وصفير الحبال المعدنية والبكرات غير المشحمة جيدًا. كانت أسنانهما تصطدم ببعضها أثناء تبادل القُبلات. بدأ الغضب ينتاب "ماتيي" بسبب شعوره باليأس، وأراد أن يحوِّل هذا الغضب وهذه التفاعلات الكيميائية التي تجري في دهاليز وخبايا جسده السرية إلى رغبة، لكن بدلًا من أن يجني العسل، جنى الفشل. كانت كل حركاته سيئة. كأن كل الأشرطة والأزرار والأحزمة والأبازيم التي تُمسك بقطع القماش التي تُغطي جسديهما قد تآمرت ضده، وعلق بعضها في بعض، حاول أن يشدها ويمزقها بأصابعه المرتعشة، لكنه فعل هذا بشكل شديد السوء. أخيرًا حدث بينهما شيء وسط هذا العشب، شيء سريع وهستيري. شيء فضَّل كل منهما أن ينساه سريعًا حتى قبل أن يُتم ارتداء ملابسه.

وعلى الرغم من أن "ماتيي" كان يأمل خلال ذلك أن يكون هذا الجِماع برهانًا. برهانًا يُقدمه الجسد، على الرغم من شعوره أن هذا

سيظل ذكرى في داخله لنوبة الصرع التي انتابته. لم يفقد كل شيء بعد؛ أخذ يـنفض عن ظهر "أندريا" بقايا العشب التي علقت بها، ربت على كتفهـا. حـاول أن يُقبلهـا، لكن كل هذا بلا جـدوى. بـذلك تخلـصت "أنـدريا" مـن التـصور الأخـير في قائمتهـا، وانطلقت متوجهة إلى المدينـة. شـحب وجـه "مـاتيي" بيـنما كـان يتلـوى في داخلـه كالسمكة عندما تختنق من الأكسجين. كان مصدومًا، وسار لمسافة قـصيرة مـن دون أن يتفوَّه بكلمة واحدة، وقد انطفأت لمعة عينيه وراء "أندريا" التـي أخـذت خـلال سيرها تُعدل من شعرها، وتنزع الأشواك التي علقت بملابسها.

وصلا إلى الشوارع المُضاءة. الأغطيـة البلاسـتيكية للمـصابيح مليئـة بالحـشرات المحترقة. ثم ظهر الناس، آخر المُرتجلين. مرَّا بمبنى خرساني. توقفت "أندريا" فجأة. واجهة زجاجية ضخمة، في الداخل حشد من الناس، يبدو أنها حفلـة موسـيقية أو سهرة ما. كانت الفتاة الأناركية ذات سبعة عشر عامًا تُمسك بـذراع الـشاب الـذي كان معها في المقهى وهي تبكي. أفسد البكاء مكياجها الأسود كله. دفعهـا الـشاب بقسوة فسقطت، واختفيا وسط الحشد. نهضت الفتاة الأناركية، وعلى الرغم مـن أنها حاولت أن تُخفي دموعها، فإن مئات الأعين المُتفحصة التـي تجمعـت حولهـا مثل اليرقات المضيئة في ليلة من ليالي الصيف الجميلة كانت قد رأت كل شيء.

فجأة قالت "أندريا" بشكل قاطع:

- فلندخل إلى هنا.

أجابها "ماتيي" كأنه أزال قطعة من جبل الجليد:

- هل تريدين أن تذهبي إلى الحفلة؟

قالت "أندريا":

- أريد شيئًا لأشربه.

ابتسم "ماتيي" من الدهشة، ولكن هذه المرَّة بصدق. انحنى على الفور أمام شباك بيع التذاكر، ومد يده بالمال، ثم تسلَّم تذكرتين للدخول من يد مُجعدة ترتدي خاتمًا ذهبيًّا وأظافر صناعية طويلة. وقف "ماتيي" في الطابور أمام البار. شرب هو أيضًا فقد كان لديه شعور غامض بأن "أندريا" تُريده أن يُصبح أكثر شجاعة. شرب كأسًا بعد أخرى من الفودكا. وبعد لحظات شعر بأن الكحول يتغلغل في جسده، وينتشر في راحتيه، في صدغيه، وفي ركبتيه. بعد لحظات كان يشعر بالسعادة.

وقفا مع الحشد الذي يتمايل مع الموسيقى. فهناك فرقة غنائية تقف على المسرح. أربعة رجال يُحاكون بثقة الاتجاه الموسيقى الذي

كان رائجًا في شتَّى أنحاء العالم قبل ربع قرن. قبض المُغني على الميكروفـون وأخـذ يتجول بثقة على خشبة المسرح لكي يُظهر للحضور بأنه لـيس جـادًّا تمامًـا، وبثقـة أيضًا أخذ يهز رأسه، ويُشيح بشعره الأسود الطويلـة الـذي ظـل يـدخل في عينيـه، وبثقة غنى بالإنجليزية محاولًا أن يُقلد الـلـهجة الـصحيحة التـي أتقنهـا في أحـد جراجات السيارات في هذه المدينة الصغيرة التي تقع في جنوب التشيك. كـما قـام الجمهور أيـضًا بفعـل مـا تفعلـه الجماهـير وفقًـا للتـصور العـام – كـانوا يهـزون رؤوسهم، ويضربون بأيـديهم عـلى أفخـاذهم في إيقـاع منـتظم، ويـضربون الأرض بنعال أحذيتهم في خجل، ومن وقت لآخر كان أحدهم يقـوم برفـع سـبابته فـوق رأسه، ويشير بها عدة مرَّات متماشيًا مع الإيقاع، لكنه يتراجع على الفور في خوف، وكأنه استخدم يده لتهديد نفسه بنفسه. كان الجميع ينظرون – لم يكن مؤكدًا إذا كانوا ينظرون بسخرية أم بقرف أم بإعجاب - إلى الغلام الـذي يُمـسك بزجاجـة في يده ويصرخ مباشرة عند المسرح: كان يسقط، ثم يقفز، ويقوم بحركات أخـرى فقـط لُيعطي انطباعًا بأنه في حالة نشوة (على الرغم من ذلك كان مـن وقـت لآخـر ينظـر بعين واحدة من أسفل شعره الأشعث، ومن غير اللطيف أن تُلاحظ أنـه يفعـل ذلـك ليتحقق من أنه ما زال محط أنظار الناس بشكل مُرضٍ وهو في نشوته هذه).

كان معظم الجمهور تقريبًا في سن الفتاة الأناركية. مخلوقات غريبة تتجول في أرض لا صاحب لها. سألت "أندريا" قائلة:

- لماذا يعبد كثير من الأطفال الألم؟ إن عبادة الألم هذه قد ترعرعت في كثير من غرف الأطفال، في هذه المباني الجديدة ذات اللون الأخضر. في القصور المكبلة بقروض الرهن العقاري كأنها تحت خيوط العنكبوت. الآباء يكدون حتى الموت لتحقيق أحلامهم، لتحقيق سعادتهم المتجسدة في أطفالهم. بينما الأطفال في غرفهم يستدعون الموت والفوضى المتمثلة في مُغنٍّ يُحدِّق بألم من صورة فوق الجدار.

كانت "أندريا" تقف جانبًا، رأت كل شيء. بدت كمن يقف منعزلًا خلف حاجز زجاجي. بجوارها وقف "ماتيي" الذي أصبح سكرانَ، كأنه يؤدي مهمة مكلفًا بها. انفصل عن الحائط، واتجه بخطوات غير ثابتة إلى البار. استغلت "أندريا" هذه الفرصة وذهبت إلى الخارج. أخذت تستنشق هواء الليل بعمق، وتشعر بقطرات الندى المتساقطة. وفي التقاطع الخالي كانت أضواء إشارة المرور تتغير بلا داع. هناك فتاة تجلس على الرصيف، وتُحدق في الأسفلت. تشعر برغبة في البكاء. هذا النبض اللطيف الذي يسلب الإنسان عقله. فالقنوات الدمعية تُمثل المركز النابض للرأس كله.

سألتها "أندريا":

- معكِ سيجارة؟

أخرجت الفتاة في صمت علبة شبه ممتلئة من جيبها، وقالت لها وهي تمد يدها بالعلبة إلى الهواء من دون أن تنظر إلى "أندريا":

- خُذيها كلها.

ابتسمت "أندريا"، وجلست على الرصيف بجوار الفتاة. أشعلت السيجارة، وسحبت نفسًا طويلًا، ثم تنهَّدت.

قالت "أندريا":

- هذه أول مرَّة من عامين.

- خسارة.

ابتسمت "أندريا".

- أردت فقط أن أذكِّر نفسي بشيء ما.

- ماذا؟

- لا أعرف كيف كان مذاقها في تلك المرَّة.

- كم عُمرك؟

- واحد وثلاثون.

نظرت الفتاة إلى "أندريا" لأول مرَّة.

- تُبدين أصغر سنًّا.

ابتسمت "أندريا" قائلة:

- أعرف هذا.

أعطت الفتاة منديلًا لكي تمسح أنفها، ثـم أعطتهـا آخـرَ، لمـست الفتـاة خـدها لمسة خفيفة بإصبعها لكي تعرف به وكأنها تنظر في مرآة إلى أين وصلت ماسـكارة رموشها بعدما ساحت.

- هل أنتِ أفضل الآن؟

أومأت الفتاة برأسها.

- لا داعي لأن تُعاني من أجله فهو لا يستحق.

- غبي.

أومأت "أندريا" برأسها.

- أتمنى أن ألتقي يومًا بشخص يفهمني. شخص يـشعر بمـا أحتـاج إليـه حقًّا.

ابتسمت "أندريا" بمرارة. انتهت من تدخين السيجارة، وألقتها بعيدًا. لم تتذوقها مُطلقًا، كان الدخان يحرق عينيها.

صمتا.

سألتها الفتاة:

- هل أنتِ من هنا؟

هزَّت "أندريا" رأسها.

- جئتُ إلى هنا للقيام بشيء ما. سأغادر. ربما للأبد. لقد وجدتُ عملًا في الخارج.

قالت الفتاة، وقد بدا أنها تُفكِّر في أشياء أخرى:

- ستبدئين بداية جديدة؟

رفعت "أندريا" كتفيها قائلة:

- شيء من هذا القبيل.

يبدو أنها كانت تُريد أن تقول شيئًا آخر، لكنها لم تقل شيئًا. فركت عينيها بسبابتها وإبهامها، ثم انزلقت بأصابعها على جزع أنفها، وضغطت عليها، ثم مرَّت بكفها على وجهها كله مثل الأعمى

عندما يتحسَّس وجهًا غريبًا ليعرف ملامحه. نظرت إليها الفتاة وهـي ترفـع يـدها بالمنديل.

قالت "أندريا":

- في بعض الأحيان يكون التغيير مطلوبًا في كل شيء.

ثم أخذت المنديل من يد الفتاة، وأخذت تمسح عـن وجـه الفتـاة بقايـا المكياج.

ابتسمت قائلة:

- هكذا.

أخذت تتأمل الفتاة بعناية. إنهـا رائعـة الجـمال. كـان شـعرها الطويـل الـذي تُخفيه كأنها ترتدي حجابًا يمنع جمالها من الظهور بكامل بهائـه. قامـت "أنـدريا" بمسح وجه الفتاة بظهر يدها، لمست شعرها، وجعلت خصلاته تنساب بحرية بين أصابعها. ثم لفته على مؤخرة رأسها، وأمسكته بيدها، وأدخلـت يـدها إلى جيبهـا. فتحت العلبة، وأخرجت منها مشبك الشعر ذا الوردات الثلاث الحمراء، ولمت بـه شعر الفتاة.

قالت "أندريا":

- رائع.

نظرت الفتاة في لوح زجاجي صغير، وكأنها ترى نفسها للمرَّة الأولى. خدَّان جميلان رقيقان، وعينان عميقتان، وشفتان ممتلئتان. كل شيء في مكانه. كانت جميلة. كاملة الأوصاف.

قالت "أندريا" وهي تبتسم:

- لا بد أن أذهب.

بدا الحزن على الفتاة، وقالت:

- لا بد؟

ثم تحسَّست شعرها لتُعيد إليها المشبك، لكن "أندريا" أوقفتها:

- لا، إنه لكِ، اتركيه.

ابتسمت الفتاة.

- هل سنلتقي مرَّة أخرى؟

قالت "أندريا":

- لا أعرف، فقريبًا لن أكون هنا. أعطني رقمك. أخرجت من حقيبتها قلمًا، وكتبت الفتاة رقمها على علبة السجائر.

تعانقا، وطبعت كل منهما قُبلة على خدِّ الأخرى. لوَّحت "أندريا" بيدها محيية الفتاة، وتركت هذا الشارع الليلي لينعكس خلفها على الباب الزجاجي.

⊙⊙⊙

تمكَّن "ماتيي" بصعوبة من الوقوف على قدميه، وردد أنه لن يستطيع العيش من دون "أندريا"، ومثل هذا الهراء. وجدته عند البار. انتهت الحفلة، بينما ظل آخر من بقي من الناس يقفون في جماعات في ضوء المصابيح البيضاء، أو كانوا يسيرون عبر الصالة وسط الأكواب البلاستيكية الشفافة. الأقدام تلتصق بالأرض، وعلى خشبة المسرح وقف غلام يضع سماعات على أذنيه، وأطلق صوت ضجيج وصرير من جهازي جرامافون.

سارا عبر شوارع المدينة الخاوية. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل. لم يكن واضحًا من بعيد من منهما الذي لا يُريد الآخر. وصلت الباص ببطء إلى المحطة الخاوية، كأنها كتلة حجرية مضيئة. أخرجت "أندريا" من جيبها علبة السجائر، وفصلت الجزء المكتوب عليه رقم الهاتف، وقبل أن تصعد إلى الحافلة أعطته لـ"ماتيي".

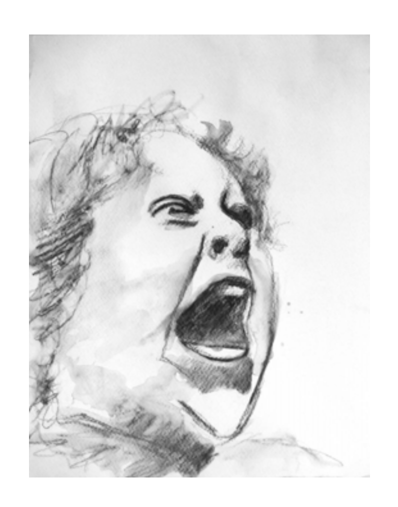
قالت له:

- اكتب لي غدًا شيئًا لطيفًا.

قبض "ماتيي" على الـرقم في راحتـه كأنـه كنـز. أغلقـت الأبـواب بعـد صـعود "أندريا"، وانطلقت الحافلة الممتلئة بالنائمين إلى الظلام.



أسلحة ثقيلة جدًّا



وقفت "لينكا" خلف نافذة إحدى المدن الأجنبية تستحمُّ، بينما يرتدي "بتر" ملابسه. أغلق أزرار قميصه، وفتح الخريطة التي حصل عليها من استقبال الفندق. تجول بعينيه على أسماء الشوارع التي لا يفهم معناها، وفجأة سمع صرخة آتية من الفناء الداخلي للفندق. انحنى ناظرًا من النافذة: مساء صيفي، وفي عمق الفناء مجموعة من الأشجار، وفي مكان ما أسفل تيجانها يوجد ملعب. طفل ما هو من أطلق هذه الصرخة. لا يوجد شيء غير عادي في هذا. الشيء الوحيد هو أنه صرخ بلغة أجنبية. كان يتشاجر مع والده بالفرنسية. إنه واحد من الانهيارات الاجتماعية: كان الطفل يطلب شيئًا ما بصورة هستيرية. ظل طوال الوقت يصرخ بكلمة واحدة وكأنه لا يعرف غيرها. إن "بتر" لا يعرف الفرنسية، لكن هذه الكلمة كانت قد فقدت معناها في كل اللغات. بقي منها الصوت فقط. صراخ بيولوجي. أحبال صوتية تهتز اهتزازًا عنيفًا حتى الاحمرار. يُصدر الطفل هذه الأصوات مُحاولا بها قهر أبيه الذي كان يُجيبه بصوت هادئ وبلا مُبالاة مما دفع بالطفل إلى قمَّة الجنون.

تذكَّر "بتر" اللعبة التي كان يلعبها عندما كان طفلًا. فعندما كان لا يرغب في أن يُشغل باله بأي شيء على الإطلاق، كان يبدأ في تكرار كلمة معينة لنفسه بشكل آلي. كان ينظر إلى السماء، ويقول: "سماء"، ويأخذ في تكرار هذه الكلمة حتى تفقد معناها، وتفقد أي علاقة لها بهذه المساحة الزرقاء الهائلة التي يراها أمام عينيه. ثم فجأة تتحول

هذه الكلمة إلى مجرد لمسة من اللسان لحلق الفم، وإلى حركة للشفاه يندفع معها الهواء إلى الخارج. ذهب السحر كله، وبقيت طقطقة الفم التي تُشبه أصوات الضفادع، فجأة أصبحت هذه المساحة الزرقاء اللا مُتناهية حرة تمامًا وصعبة المنال. استغرق الأمر بعض الوقت حتى شُفي من هذه الكلمة، لكنه ظل لفترة يخشى أن تعود إليه مرَّة أخرى.

تذكَّر "بتر" كيف أنه كان من السهل في الطفولة الوصول إلى العدم الموجود خلف الكلمات. كان من السهل إيقاف أو تدمير معنى الأشياء. فالإنسان ما زال يقف على بعد خطوة من العدم. وما زالت المعاني غير ملتصقة بالأشياء بقوة. فقط في وقت لاحق تبدأ بالنمو؛ فالعالم الذي كان مُغلفًا بكلمات الطفولة اللينة دخل إلى فرن الصهر عند وصول "بتر" إلى سن البلوغ، وأصبح صلبًا. ففجأة أصبح لكل شيء معنى في الواقع الذي نشأ به، ولم يكن من السهل على الإطلاق أن يُجرد بعض المفاهيم من معناها. فهذه الأفكار ما زالت متمسكة بمعناها الكامل، الذي يفهمه.

استمر الصراخ القادم من الفِناء.

قال "بتر" بتردد:

- التربية.

ردد هذه الكلمة عدة مرات ولم يحدث شيء. أسفل النافذة لا وجـود للتربيـة. ما زال الطفل يصرخ. وما زال الأب واقفًا ويتكلم. لقد حاول أن يُهذب ابنه بصوت منخفض وهادئ. إنه يقف ويحاول أن يغرس به قيمه هو.. يُحاول أن يُهـدئ مـن روعه. كان الطفل مُستسلمًا كالشجرة التي يغرس البستاني في جرحها فرعًـا غريبًـا عنها أو قطعة ميتة من الخشب، والتي سـتبدأ لاحقًـا في النمـو بـداخلها. تـصاعد الصراخ. كان يصرخ كالحيوان. كان يصرخ بكلمات علمها له والده ذات يوم، لكـن لم يعد معروفًا ماذا تعني هذه الكلمات. فجأة وجد الصبي نفسه خارج حـدود العـدم تمامًا مثلما حدث مع "بتر" وألعابه القديمة. وجد نفسه في هذا الفـراغ المنعـدم، حيـث يقف العالم أمام الإنسان بكل بشاعته.. قاسٍ، لا يُطاق، وغير قابل للتغيير.

كانت هذه الكلمات تُشكل للـصبي في الوقـت الـراهن نوعًـا مـن الأسـلحة الثقيلة جدًّا. لكن مرَّة واحدة خطر ببـال "بـتر" أن الطفـل يـستطيع أن يفعـل شيئًا بهـذه الكلـمات. إنـه يـستطيع أن يتـسلل كـالعنكبوت إلى عـالم الفتيـات والنساء، ويكتسب المال معهن، ويبهـرهن بالمكانـة الاجتماعيـة الكبـيرة، وربمـا يصل إلى أبعد من ذلـك: لقـد أصـبح الآن يعـرف أن لديـه القـدرة عـلى ذلـك. سيسعى لتحقيق الأهداف الصعبة. سيُناضل من أجل حقوق الإنسان، سيُكافح الفساد، سيُصبح سياسيًّا، ويصعد إلى قمَّة الهرم في الحيـاة الاجتماعيـة. ابتـسم "بـتر". نعـم، بالتأكيـد، لكـن مـع اقـتراب النهايـة سـيتحطم، ستُـستنفد كـل

طاقته، وتتحول إلى لا مُبالاة وكراهية، هذا ما يحدث في العادة؛ سيبقى له فقط كفاحه الممل ضد أي شيء. ستتجمد كلماته وتتحول إلى مُثلٍ وعباراتٍ طفولية، ويبدأ بتؤدة وشرود في العودة إلى العدم، ولكن ربما سيقوم بتغيير نظامه، ربما سيسرق بعض المال، من يدري، لكنه على كل حال سيواصل الكفاح لأن الفراغ سيطبق على عنقه. إنه بالضبط من هذا الطراز. سيظل طوال حياته يصفع الناس بكلماته، لا يتزحزح، يسعى وراء هدفه، سيقطع في سبيل ذلك الرؤوس ويخطو على جثث الموتى. وعندما ينصرف الناس من حوله، سيدفن نفسه. شعر "بتر" بالإعجاب تجاه هذا الطفل على الرغم من رأفته بحاله. فهو لم يتمكن أبدًا طوال حياته من أن يستجمع في داخله كل هذه الصلابة، كما أنه لن يجرؤ أبدًا على مواجهة الوحش، فهو دائمًا يجد طريقة للهروب من المواجهة.

أفاق "بتر" من تخيلاته، لأن سياسي المستقبل قد انفجر في البكاء في الفناء. كان مستقبله كله مجسدًا أمامه، لكنه حتى الآن لم يتمكن من رفع سلاحه الأقوى. لقد أصيب الطفل بحالة من اليأس التام بسبب هذا الظلم، وبسبب أن والده بهدوئه هذا يُظهر له مدى تفوقه عليه. أخذ بصوت مُنكسر وباكٍ يُردد هذه الكلمة الوحيدة، التي تُحاول أن تحفر لنفسها طريقًا للخروج من بين هذه المقاطع الصوتية المختلفة، من بين هذه الأصوات التي لا معنى لها، مثل أصوات أجزاء قطع الحُلي الملتصقة ببعضها، وسط هذا النباح

والتمخض، لقد نسي منذ وقت طويل ما كان يُريد، فلم يعد لهذا أي دور في المعركة. وقف الناس في النوافذ المقابلة، ومدوا أعناقهم ليتمكنوا عبر أوراق الأشجار من مشاهدة ولو جزء صغير من المأساة.

فجأة، سادت حالة من الصمت. صمت رهيب خيم على الفناء، وعلى الظلال الزرقاء، بل وعلى طيور السنونو؛ بدا لـ"بتر" أنه سمع صوت تصدع الجليد، وصوت احتكاك الأسنان ببعضها. استجمع الطفل كل قوته، وصرخ بجملة وحيدة منطوقة بوضوح. لم تكن مفهومة، ولكن يبدو أنها مصيرية. سُمع صوت شخص يضحك في إحدى النوافذ. يبدو أن الطفل قد أصاب أبيه في مقتل لأن الأب قد رفع صوته بالصراخ للمرَّة الأولى.

خرجت "لينكا" من الحَمَّام ملفوفة في المنشفة، طافت بالغرفة وهي تلتقط بسرعة قطع الملابس من على السرير وعلى الأرض، والتي بقيت هناك بعد مُضاجعتهما.

سألت وهي تميل بذقنها ناحية النافذة:

- ما الذي يحدثُ هناك؟

لكنها عادت إلى الحمَّام من دون أن تنتظر الإجابة، وصفعت الباب خلفها. هزَّ "بتر" كتفيه.

ناداها فجأة، وبإصرار:

- "لينكا".

ردد هذه الكلمة عدَّة مرَّات، لكنه توقف سريعًا عن هـذا، لأن "لينكـا" بـدأت فجأة تتلاشى أمام عينيه. نظر للحظات وقد ملأه الرُّعب لهذه التركيبة التي تحمـل اسم "لينكا"، بعض النمش في منطقة عظام الترقوة، والتـي كـان ينظـر إليهـا كثـيرًا عندما يتحدثان؛ وحركة يدها التي كانت تُعيد بها خـصلات شـعرها خلـف أذنهـا، والقليل من الكلمات والعبارات والتعبيرات، التي كانا يتبادلانها فيما بينهما كتبادل الكُرة، والقليل من التصورات عن عالمهـا (فلقـد تعرفـا منـذ بـضعة أشـهر فقـط)، وبعض العطر، وبضع الابتسامات. كل هذا قد انفجـر فجـأة أمـام "بـتر" المـذهول كبرعم نبات البلسم المُزهر.

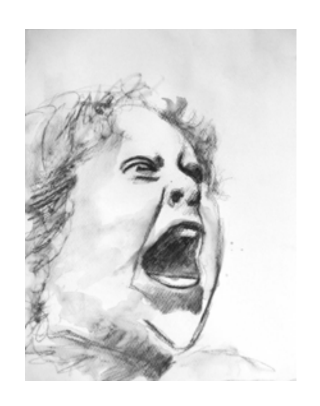
لم يجرؤ على نُطق كلمة الحب.

قالت "لينكا" وهي تقف بالباب مرتدية كامل ثيابها:

- هل نذهب؟

تفاجأ "بتر"، وكأنها أمسكت به وهو يفعل شيئًا مُحرمًا. قام سريعًـا بلملمـة كـل النمش والرائحة والابتـسامات، ووضـعها بقـدر الإمكـان في أماكنهـا، ثـم قَبَّـل هـذه التركيبة على شفتيها، وانطلقا إلى الخارج.

هبطا السُلَّم. أبطأ "بتر" من حركته بين طابقين وكأنـه في حلـم، ليـسمح بمـرور الرجل الغاضب والذي كان يحمل ابنه الصغير بعينيه الباكيتين تحت ذراعه. كـان الأب والابن صامتين في عناد، ويصعدان الدرج بتعب. لقد فشلت الكلمات، بيـنما ظهرت أصابع يد الأب مطبوعة على خد الطفل الأحمر، وبـدا كـأن "بـتر" قـد لمـح للحظة فرع شجرة العائلة مُثبتًا في جانب الصبي. سبق "لينكا"، وفـتح لهـا البـاب. خرجا إلى الشارع المظلم في هذه المدينة الأجنبية، وسارا في الاتجاه الذي يسير فيه السائحون الآخرون، والذي يعتقدان أنه يؤدي إلى وسط المدينة.



خارطة آنَّا



العِظام

إن الطفل الذي لا يشرب اللبن، يلعق الجدار.

أولى الذكريات: تستلقين على السرير، وتلعقين الجـدار لأن عِظامـكِ تفتقـد إلى الكالسيوم. إن جسمكِ يُفكر بدلًا منك. أنتِ تقريبًا كالحيوان. أنتِ سعيدة، ولكنكِ لا تعرفين ذلك.



الشفاه

لقد ورثتِ الشفاه عن والدتكِ. كأنها تركت توقيعها على جسدك. توقيـع عـلى عمل مكتمل. لقد كانت مشكلتك لفترة طويلة هي تقبيل أي شخص. كان الرجال يشعرون عندما يُقبلونكِ بأنهم يقبلون أُمكِ مـن خـلال شـفتيكِ. يُقبلـون عـددًا لا يُحصى من النساء اللاتي يحتشدن وراءكِ، ويصطففن في مكـان مـا في الظـلام. لقـد جئتِ إلى العالم رهينة، يا "آنَّـا". مـن دون أن يكـون لـديكِ أدنى فكـرة عـن ذلـك، وذهبتِ مباشرة إلى قلب حرب الخنادق التي كانت تقودها والدتكِ ضد أُمها. كُن يستخدمن في هذه الحرب أبشع الأسلحة على مر العصور.. الأطفال.

لقد كانت جدتكِ امرأة رائعة. واحـدة مـن جمـيلات المـاضي: ذكيـة، ومثقفـة، ومغرورة. كانت عضو هيئة التدريس في معهد الموسيقى. كان زوجها مُهندسًا، ولا داعي للحديث عنه أكثر من ذلك، لأن الرجال دائمًا مـا كـانوا يُـشكلون في عائلتـكِ مجرد أشياء فرعية عشوائية تدور في فلـك النـساء، الـلاتي كـن كمانـع الـصواعق.. يمتصن كل الطاقة ويرسلنها عبر الأجيال. أرادت جدتك أن يكون لها طفلًا، وبدأت تعمل على هذا. وهكذا وُلدت أمُكِ، "ماريا".

لم تكن "ماريا" مجرد طفل بـل كانـت مـشروعًا. عاشـت في رفاهيـة تامـة، تـم إعدادها كماكينة عالية الكفاءة. كانت حياتها تنتقل من مرحلة إلى مرحلة بتكتكة ناعمة كتلك التي تصدرها تروس أكثر الساعات السويسرية دقـة. بـدأت وهـي في الثالثة من عمرها تعزف على البيانو، وتعلمـت الفرنـسية والإنجليزيـة والروسـية، وأتمت دراستها في معهد الموسيقي، ثم بدأت دراسة الحقوق. في وقت ما من هذه الفترة شعرت هذه المرأة الناضجة، والذكية، وفائقة الجمال بأنها تفتقد لـشيء مـا في حياتها. أو بمعنى أدق.. تفتقـد الحيـاة. كأنهـا وجـدت في أحـد الأدراج الـسرية الكتـالوج الخـاص بهـا. كأنهـا ومـن دون قـصد فتحـت "كبُّـوت" حياتهـا، ورأت أسطوانات المحرك المشحمة وهي تعمل بكامل قدرتها. رأت كل القدرة الحـصانية وهي تَولدُ بإذعان ، وفقًا لكيفية ضغط أمها على دواسة البنزين.

وهكــذا بــدأت ثــورة "ماريــا" التــي كــان زملاؤهــا يتــساقطون مغــشيًّا علـيهم مـن فـرط عِـشقهم لهـا إلى حـد الجنـون، والـذين كـانوا ينظمـون لهـا

الـشعر في محاولـة يائـسة لنيـل رضـاها، ويحـاولون الانتحـار باسـتخدام الأدوات الموجودة في صالة الألعاب الرياضية. أنجبت طفلًا من أول رجل صـادفته، والـذي كان على النقيض تمامًا من كل من كان في مُخيلة والديها، وهكذا وبضربة واحـدة قضت على كل ما زرعه فيها والداها على مدار السنين. وجدت رجلًا فاشلًا عـاجزًا يعمل مدرسًا للفيزياء، ومدمنًا للكآبة والخمر. تمسكت بقوة بهذا الرجـل الـذي لا يُحتمل، وصوبته في اتجـاه والـدتها، وأطلقـت عـلى وجـه أمهـا المـشمئز قـذيفتها الوحيدة، التي تُدعى "آنَّا".



الزاوية اليسرى من الشفتين

لقد كان مجيئك إلى العالم كارثة. الضربة كانت مُدوية. صُمَّت آذان الجميع بعدها، ظلوا هكذا لفترة طويلة، وكانوا يتواصلون فيما بينهم بلغة الإشارة الهستيرية. لم يكن أحد يستطيع سماع الكلمات فهي لم تكن تعني شيئًا. كانوا يتحدثون في المقام الأمل بالأيدي والأعين. كل شيء قد تحجَّر من الدهشة، وكانت الإشارات تطير بشراسة في الهواء، فيما يُشبه افتراق العُشاق من الصم والبكم.

عندما تعافى أجدادكِ بدؤوا الهجوم المضاد.. على الرغم من أنكِ لم تكوني تجيدين الكلام بعد بشكل سليم، فإنهم أخذوا في تعليمك لعب الشطرنج، وقراءة النوتة الموسيقية، وحروف الهجاء. احتجت والدتك بكل ما أوتيت من قوَّة على هذه البلطجة الفكرية، وجعلتكِ تنسين الشطرنج، وقادت بشراسة عملية تنشئتك نشأة حرة، وعندما كبرتِ ألحقتكِ بالحضانات والمدارس البديلة والمتنوعة، حيث لم يكن هناك تصنيف للتلاميذ، لم يكن مسموحًا أن يقوم أحد بلمس الأطفال. كان الجميع يسيرون على أطراف أصابعهم ليراقبوا كيف تمر قوَّة الطفولة الغامضة عبر هذه المخلوقات الصغيرة، وتتحرك من مكان إلى آخر في

المساحات الخضراء من الحدائق، حيث تقوم بتربيتهم ليصلوا إلى الحكمة الطبيعية.

إلا أن بعض الأطفال - أنتِ - وبسبب هذا الغموض بدؤوا يتلعثمون، وعانوا من التبول اللا إرادي حتى سن العاشرة، وأشد ما عانوا منه هي هذه الحكمة الطبيعية. أمَّا والدكِ الذي ما زال حتى الآن في مؤخرة المعارك، لم يكن يُريد أن يكون هناك شيء مشترك بينه وبينهم، أصبح يُعاني من شوق شديد إلى شيء ما لا يمكنه الإفصاح عنه. أخذ يكتبُ قصائد شعر رديئة، ويشرب الخمر، لكنه أعلن أخيرًا (لدرجة أن النساء تركن السلاح للحظات من فرط دهشتهن) أنكِ سُتغادرين هذه المدرسة الطبقية. قضى الساعات الطوال جالسًا بجوارك في كثير من الأمسيات في المطبخ بالقرب من المصباح المكسور وهو يعلمك الرياضيات في صبر.

لم تُصدقِ أبدًا أن أمَّكِ تشعر تجاهه بأي عاطفة قوية. إنه مجرد إنسان وجد نفسه في المكان المناسب في اللحظة المناسبة. توقَّع الأب حدوث هذا الشيء من دون أي مشاكل، لكن هذا الهاجس كان يُقيده، ويسلبه آخر ما تبقى له من إرادة. كان يُحِبُّ أمكِ بصدق، ومثله مثل جميع العاشقين رفض أن يرى بعض الأشياء السلبية بها. عاش بهذا الهاجس فقط محاولًا أن يتخلص منه. كان يهرب منه بإخفاء وجهه بين كفيه، وبشرب الخمر.

في نهاية المطاف، استقر كل شيء في الزاوية اليسرى لشفتيه، لم يعد يجرؤ على الحديث مع والدتكِ. لم يعترض على شيء، فقط كانت

شفته تهتز في ضعف. خشي أن يفقدها. كان يعـرف ذلـك. أخفـى هـذا الحـزن في حركة شفتيه التي لا تتجـاوز الملليمـترات. كانـت هـذه أصـغر محاولـة لابتـسامة محتملة. ومضة من أمل لا تتجاوز الملليمترات تُنبئ بـأن الأشـياء عـلى الـرغم مـن انحدارها الرهيب في اتجاه واضح، فإنها يُمكن أن تعكس اتجاهها مرَّة أخرى.

أمَّا أنتِ فقد كنتِ تُحبين والدكِ، تُحبينه حتى بحزنه. كان حبكِ له هـو المـؤامرة السرية التي توحدكما. أنتِ لم تلحظِ أنكِ أصبحتِ ساحة للمعركة التي تتقاتل عليها نساء عائلتكم. لكـن أبـاكِ رأى ذلـك. ففـر مـن هـذه المعـارك، وأخـذكِ معـه. كـان جيولوجيًّا يعشق الطـين والأرض، وبـاطن الكوكـب. أخـذكِ إلى الجبـال. كـان يقـضي الساعات الطوال معـكِ، وأنـتما مـستلقيان عـلى ظهـريكما في العـشب، ليرسـم لـكِ بأشكال الغيوم كل مـا تتخيلينـه. علمـكِ كيـف تفـرقين بـين أنـواع المعـادن وأنـواع الصخور، وأنتِ بدأتِ تعشقين كل هذه الأحجار، لأنه لـيس مـن بينهـا مـن يـتكلم، ليس من بينها من يُريد منكِ شيئًا. تلك كانت أجمل ذكريات طفولتك.

كان في بعض الأحيان يأخذكِ لزيارة والده.. عامل المنـاجم العجـوز، صـاحب العـين الزجاجية، والعمود الفقري المكسور.. كان يُدخن بشراهة، ولا يتكلم. كنتِ تُحبين نظرته المنحرفة عن اتجاهها – لم تكن عينه الزجاجية تُطيعه، إنها مُعلقة على حريتها في رأسه. ولذا دائمًا ما كان ينظر في الاتجاه الخاطئ. كنتِ تشعرين بالأمان في هذا المكان الغامض

الأعمى. كنتِ تسألينه، وأنتِ تلوحين بيدكِ، وتُخرجين لسانكِ: "أتراني يا جدي؟". وكان الجد يبتسم، وينفخ الدخان. كنتِ تشعرين براحة هائلة، على الرغم من أنكِ لم تدركِ بعد سببها – فهذه النظرة التي لم تكن في اتجاهها الصحيح، لا تُضيء مثل المصباح أثناء الاستجواب. هذه النظرة تعلم بوجودكِ، لكنها تركت لكِ المجال الذي يُمكن أن تعيشي به.

كان الأب والجد كحجرين. كحفريات متحجرة مُغطاة بالتراب في مكان ما في إحدى فاترينات العرض، والحرب تدور من حولها. أحيانًا تسمعين صداها في مكان ما في أعماقك. في مكان ما في داخلك تتحرَّك فرق جيوش الإمبراطوريات المندثرة منذ زمن طويل. القتال مستمر، لكن لم يعد أحد يهتم بذلك. إن والدتكِ مُطلقة منذ عشر سنوات، ولم تتعافَ أبدًا من وفاة جدتك، تعيش علاقة جديدة، وتقود كثيرًا من المعارك الأخرى.

ولقد لاحظتِ ذات صباح في المرآة أن هناك نغزة صغيرة تهتز في الزاوية اليسرى لشفتيكِ. نصف ابتسامة صغيرة لم تعنِ فقط الحنين إلى الماضي، ولكن تعني أيضًا الأمل الأخير في أن كل شيء يُمكن أن يأخذ اتجاهًا آخر. وهي تشير قبل كل شيء إلى الأب.. كنتِ تودين أن تأخذي هذه النغزة العصبية في حضنك، فقد أعجبتكِ كثيرًا، وبسعادة كبيرة رحبتِ بوجودها على خارطة وجهكِ. حملتِ هذه النغزة على وجهك كأنها قطعة من المجوهرات، وظللتِ طوال اليوم تتحسسين شفتيكِ.



الأنف

لقد كنتِ تكرهين مُراهقتك. فلم يحدث أبدًا أن شيئًا قد فسد أمام عينيكِ بهذه السرعة مثلما حدث لجسدكِ في هذه المرحلة. لقد فسد كل الفصل من حولك. هؤلاء الأولاد الخُضر، من كانت تُشم فيهم رائحة الرغبة الجديدة غير المعروفة. ما زلتُ حتى اليوم أتذكر رائحة الجراء الصغيرة التي أصبحت تفوح منهم. احمرَّت وجوههم، وحلقوا شواربهم النابتة، وتغير الصوت الخارج من أفواههم. صاروا يتحدثون كالبهائم.

إن المراهقة تُشكل مشكلة مستمرة للجسد. فالجسد في هذه الفترة يُشبه رداءً سيئًا، ففي كل مكان منه هناك شيء يضغط عليك، ويخنقك، ويجد كل واحد أن هناك شيئًا يُمثل له كابوسًا صغيرًا. فالكل يتخيل أن له أذنين مفلطحتين، ورقبة طويلة، وشعر مستقيم جدًّا، أو مموج جدًّا. والجميع على حق دون استثناء؛ فالأشياء الصغيرة كبرت أكثر من اللازم. فأذن الطفل أصبحت أذنًا كبيرة جدًّا، والشفة الصغيرة أصبحت شفة كبيرة، والرأس الصغير أصبح رأسًا كبيرًا. بالإضافة إلى النمش، وعيوب البشرة، وتفاحة آدم التي تظهر ربما بين عشية وضحاها كفتق غضروفي في رقاب الأولاد المفزوعين.

لم يكن أحد يعرف ما الذي يجب فعله حيال ذلك. كيف سيتحرك بهذه الكتلة الجديدة، كيف سيُقيم بها. كان كل واحد فيهم يُراقب وجهه وأذنيه وجوزة حلقه في بريق أضواء الفترينات، وفي باب مقصف المدرسة الزجاجي، وفي ظهر الملعقة، وفي شاشات الآلات الحاسبة. كل منهم يُدير رأسه بشكل مُستمر ليتأكد هل ما زالت أذناه وذقنه وتفاحة آدم بارزة من أماكنها.

تلك الأجساد وهي في مرحلة النمو ليست محبوبة كثيرًا من أصحابها. حتى الفتيات في سن الثانية عشرة يتصرفن بوقاحة. فجأة، يجدن أنه أصبح لهن كثير من الأيدي والأقدام، كل مكان في أجسادهن صار ممتلئًا، وهناك شيء فيها ينفجر باستمرار، ويملن إلى الانطلاق، ويجتمعن، ويضحكن بشكل هستيري، وتحمر وجوههن. ينظرن بدهشة إلى صدورهن المنتفخة. إنه ربيع الجسد، لكنه ربيع سيئ، ومُنهَك، وشديد التقلب. ففيه تُعاني كل فصول المدرسة بشكل رهيب من هذه الحمى الاستوائية، تفوح من هذا الهياج ومن كل تلك الأشياء البارزة رائحة شيء لزج. كل شيء يستعد للجماع الذي لا يُجيده أحد.

حتى أنتِ كان لكِ كابوسك. لقد أصبحت أنفك الجميلة تُشكل لكِ جحيمًا، لأنها تبدو لكِ كبيرة. كنتِ تفكرين بها لساعات طويلة. قضيتِ أيامًا طوالا تفكرين في أنفك. وكذلك ليالٍ كاملة لا تُحصى بلا نوم.

انعكس أنفكِ على كل نواحي حياتكِ. انتشر. بدأتِ تُصففين شعركِ، تُنعكشينه ليزداد حجمه. فحجم الشعر يُمكنه أن يُغطي على حجم الأنف. كنتِ تتركين باستمرار خصلة واحدة من شعركِ تتدلى على وجهك. كانت تحجب عنكِ الرؤية، لكنك كنتِ تشعرين خلفها بالأمان.

لقد بدأتِ في رسم عينيكِ. كنتِ ترسمينها بالقلم كل صباح أمام المرآة. وكنتِ كل يوم تُضيفين قليلًا من الماكياج. فمن المفترض أن الأعين المميزة تُغطي على الأنف المميز، لكن أنفكِ المُخادع، كما لو أنه يفعل العكس، ويزداد حجمًا. لم يتراجع ولا خطوة واحدة. وبسبب موقفه الذي لا يتزعزع تمكن من السيطرة على شعرك، والآن يُسيطر حتى على عينيكِ. كانت تتدلى من رموشك باستمرار حبيبات من كحل الأعين. بسببها كنتِ تخشين البكاء، لأن هذا سُيغطي خديك تمامًا باللون الأسود.

في هذه الفترة كنتِ دائمًا ما تضعين شيئًا على وجهكِ. تُحاولين باستمرار تغيير أبعاده. كنتِ تضعين العقبات أمام أنفكِ، وتحتقرينه. داومتِ على ارتداء نظارة شمس ضخمة، وقرط مميز، وتسريحات شعر تزداد كل يوم غرابة. بدأتِ تُدخنين، على الرغم من أن السجائر لا تروق لكِ ولو قليلًا، فإنه بمجرد أن تصل السيجارة إلى يدكِ، وبمجرد أن تقترب من شفتيكِ، كانت تجذب الانتباه إليها. لكن أنفكِ كان حاضرًا في كل شيء. سيطر على يدكِ، وعلى الحركة التي ترفعين

بها السيجارة إلى فمكِ، وعلى الإصبع التي كنت تنفضين بها رماد السيجارة، حتى إنها تغلغلت إلى داخل جسدك، ثم إلى رئتيكِ اللتين كانتا ترفضان الدخان وتسعلان بعده.

سرعان ما أثَّر الأنف أيضًا على حركات جسدكِ. كنتِ تسيرين مستقيمة الجسد جدًّا. وعندما كنتِ تتحدثين مع أحد، كنتِ تديرين رأسكِ إلى الوضع الذي اعتدتِ ملاحظته في مرآة المنزل، الوضع الذي لا يبرز فيه أنفكِ كثيرًا. كان هذا يُثير في الناس شعورًا بعدم الراحة؛ بالتكلف، الذي سرعان ما انعكس على الناس أنفسهم (كما لو أن أنفكِ - أو فكرة أنفكِ الكبير تسعى للانتشار حتى خارج حدود جسدك)، فالعديد من الناس كانوا يُصابون بالعصبية والارتباك عند وقوفهم أمامكِ.



اليدان والقدمان

كانت هذه فترة سيئة. فترة النمو السوداء. عندما كنتِ في الرابعة عشرة من عمركِ، بدأت تُقبلين وتلمسين الأولاد، لأن هذا يجب أن يحدث. إن المراهقين كالآلات. فهم يفعلون على مدار الأيام ما يعتقدون أن عليهم فعله، ويُعانون بما فيه الكفاية. يتعرضون لكل هذا التمرد، وهذه الحالات، وهذه المواقف المعدة سلفًا. هذه الأمسيات الرهيبة للقُبلات الأولى، حيث يلتصق المعتوهون من المراهقين في سن الثانية عشرة ببعضهم كأنهم يرتدون سُترة المجانين، ويتنفسون، ويغمضون أعينهم من النشوة، إلا أن ما يؤرقهم هو أن يجري كل شيء وفقًا لدليل فن التقبيل.

كانت بدايتكِ مع فتي يُدعى "ميلان"، لكنكِ كنتِ تشعرين أمامه بالخجل الرهيب (الأنف). و"ميلان" لم يُحاول مُساعدتك. كان خجولًا بشكل مرضي، وفي مقابل هذا كان يؤذيكِ بدهاء شديد. كان "ميلان" يُعد في ذلك الوقت معبودًا للنساء لأنه يُشبه مُغنيًا في إحدى الفرق الغنائية التي كانت تُعتبر موضة في ذلك الوقت، وكان هذا المطرب يُغني عن الموت والمُعاناة، وهو الأمر الذي كان يُعجب الفتيات المراهقات. لم يكن "ميلان" يُغني ولكنه كان تجسيدًا للمعاناة بالنسبة

لكِ. كان مزاجه مُتقلبًا بشكل رهيب، وعندما يكون في هـذه الحالـة فإنـه يـدخل في حالة من الصمت المُطبق.. حالـة مـن الانتظـار المـشؤوم. كـان يـدعوكِ إلى المقهـى، وهناك يلتزم الـصمت. كنـتما تـذهبان إلى التَّنـزُّه في الحديقـة، وتجدينـه في البدايـة يتحدث، بل ويمزح بطريقة غير لائقة، ثم فجأة يلتزم الـصمت، ويتجمـد عـلى هـذا الوضع. كان يصمت بصورة رهيبة، وبعناد، لدرجة أنكِ تُصابين بالصداع الشديد مـن ذلك. اقتراب الغروب، المروج الأرجوانية، الحديقة، على البعـد يلعـب الأطفـال عـلى الأنابيب المعدنيـة. وقـع خطـوات وطقطقـة الحـصا أسـفل عجـلات عربـة الطفـل، كلمات تُسمع من بعيد، لكن أمامكِ يقف هذا الصمت الفظيع القـاسِ. يُـشبه هـذا الانحناء على حاجز يُطل على هوة سحيقة.

انتهى هذا اللقاء بتجهُّم، وتقريبًا بكراهية. ضم الصبي "ميلان" شفتيه، وابتسم ابتسامة خفيفة، فابتسمتِ أنتِ أيضًا بالارتباك نفسه. فجأة أصبح "مـيلان" غريبًـا عنـكِ، ودَّعـكِ بنـوع مـن الازدراء الطفيـف، وبخطـوات مُتثاقلـة سـار بعيـدًا عـبر الحديقة. ترككِ وسط هذه الفوضى التي عمَّت من حولـك، حتـى إنـك في النهايـة نهضتِ، وانطلقتِ بلا هـدف. سرتِ بـلا داعٍ عـبر طـرق مُلتويـة مـع اقـتراب ليـل المدينة، وصولًا إلى منزلكِ، حيث كانت بقايا أشعة الشمس وظلال ستائر النـايلون تتموج على باب الثلاجة.

وصل "ميلان" إلى مبتغاه بشكل محموم. قرر إسكاتكِ حتى الموت، قرر التـزام الصمت تجاهكِ أنتِ. في بعض الأحيان كنتِ تلاحظين أن يدي "مـيلان" ترتعـشان، فقد كان يجلس بجوارك كأنه يستجمع شيئًا ما في داخله. كان يلعـق شـفتيه، ثـم يعود ليستكمل ما يستجمعه في داخله، لكنكِ تشعرين بعد ذلك بأن شيئًا مـا قـد كسر هذا الصمت، شيئًا ما قد انفرط في داخله، توقفت رعشة يديه، وبدا كأنه قد انطفأ وأظلم – كان هذا مرئيًّا حول عينيه – إن هذا الانطفاء هو حقًّا مصدر الألم الحقيقي. برود تام، يُلاحظ فقـط بفـضل التجمـع الطفيـف للظـلال عـلى وجهـه. بسبب هذه الحركات الميكروسكوبية لكتلة وجه هذا الفتى، كنـتِ تقـضين الليـل كله في بكاء متواصل.

عندما مارستِ الجنس للمرَّة الأولى، لاحظتِ بفزع ما يحدث في هذه الظروف لجسم الإنسان. كأنهم سحبوا من الإنسان رخصة القيادة التي يقـود بهـا جـسده. ففجأة يبدأ بالانتباه بشكل غير مريح لكل حركة من حركاته، فعندما تمتـد اليـدان إلى الكوب، ويرى الإنسان ذلك فإنه يقول: "يدا أبله". إنهما يمتدان بـشكل خـاطئ تمامًا، فليس هكذا تمتد الأيدي إلى الكوب. أو عندما تصعد القدمان السُلَّم، ويـرى الإنسان ذلك فيقول: "قدما أبله". كل شيء خطأ: الكلمات خطأ، الجسد خطأ، كـل شيء يجب أن يتم بطريقة مختلفة. كل الحركات سيئة وفقًا لهذا النمط.. الجـسم يفعل، الإنسان يرى – أبله.

إن الناس، يا "آنَّا"، يُعانون كثيرًا بسبب أجسامهم. بسبب كل هذه النسب والأبعاد. بسبب القواعد التي وضعوها لحركة الجسد. كل هذه القواعد التي وضعوها، قواعد الرأس، وقواعد الساقين، وقواعد الشفتين، والشعر، والأظافر، والرموش. بدا لكِ في ذلك الوقت أنه لا مفر من هذا. لقد رأيتِ بنفسك كيف يُمكن لإيماءات تافهة أن تُسيء للإنسان كله. يكفي أن ينحرف قليلًا عن الصورة التي رسمها له الناس، فيبدؤون على الفور في كراهيته. يكفي أن يقوم فتى مُهذب، وهادئ، وخجول، ويُحبه الجميع لأنهم يوجهون إليه عواطفهم - أو تعاطفهم – أن يقوم بشيء غير متوقع، بأن يرقص في حفلة مثلًا، أو يتحدث عن نفسه بنغمة سيئة، أو أن يكون عالي الصوت، أو كتومًا، أو أنه يلعب دور الدونجوان، فإنه يُصبح على الفور مُثيرًا للاشمئزاز.

كنتِ تعتقدين أنه لا سبيل للإنسان للفرار من قدره المحتوم، وأن هذا القدر يُولد في عدة سنتيمترات مربعة من الجلد الذي يُغطي جمجمة الرأس. القدر الذي يُولد من شكل الأذن، ومن طول وعرض الأنف، ومن ارتفاع الجبهة، وانحناء الذقن. فإمَّا أن يلعب الإنسان وفقًا لقواعد فسيولوجية أعضائه، وأن كل شيء على ما يُرام، أو يعترض على ذلك فيُعاقب.



في هذه الفترة كان كل شيء يستغرق وقتًا طويلًا. كان اليوم الدراسي يشبه المطاط، يتمدد إلى أبعاد لا تُصدق. كان كل مسلسل تلفزيوني يتكون من ألف حلقة على الأقل، وكل حلقة تستمر لخمس ساعات. وكذلك كل هذه البرامج التلفزيونية السمجة الممتلئة بالدبلجة السيئة، ومسابقات المعلومات التي يتنافس بها عُمَّال البساتين على ثلاجة، واعترافات مشاهير الدرجة الثانية.

انتهت علاقتكِ بهذا الفخ الصامت المدعو "ميلان" بعد عدة أشهر. أنهى علاقته بكِ في حفل هذه الفرقة الغنائية البائسة، تلك التي كانت تُحاول أن تُقلد هذا النوع الموسيقى الذي كان الجميع يُحبُّ الاستماع إليه. قال "ميلان" إنكِ لا تفهمينه. أنك باردة معه. حتى إنه قال إنكِ كنتِ تقللين من شأنه، وإنه كان يُحبك لكنك لم تُبادلينه الحب. بقيتِ واقفة وسط الحشد، لا تستطيعين الحركة، وقد سالت الماسكرا السوداء على خدكِ. شعرتِ بثقلها على وجهكِ.

أغلقتِ عينيكِ. تذكَّرتِ الإعلان الذي رأيته هذا الصباح في التلفزيون. في الإعلان اصطدمت سيارة في جدار خرساني بسرعة مئة كيلو متر.

كُنت تتطلعين بشدة لرؤية وجه دُمى الاختبار الجالسة في مقاعد السيارة. فبينما تحطمت قطع الزجاج في اللقطات المعروضة بالتصوير البطيء فمزقت ملابسها، وبينما تداخلت الصفائح المعدنية للسيارة في بعضها، وتكتّل جسم السيارة ليُصبح كمروحة اليد، وتصاعد منه البنزين المُشتعل؛ فإن الدُّمى اصطدمت في البداية في هدوء ووقار بجبهتها في لوحة القيادة، ثم ارتدت إلى الخلف لتصطدم بظهر المقعد، ثم عادت لتصطدم بقوة برأسها بالمقود وبالزجاج. بينما لم يظهر أثر واحد على وجوهها. بقيت نظيفة. تمنَّيتِ من أعماق قلبك أن يكون لكِ وجهًا مشابهًا لوجهها. وجه خالٍ من أي معنى، وجه نظيف ومتكرر. وجه لا يستطيع أحد تذكره، ولا يُجبر أحدًا على أن يشتاق إليه.

فتحتِ عينيكِ، وخرجتِ من المكان. جلستِ على الرصيف، وأخذتِ تستنشقين هواء الليل البارد المُعبأ برائحة الندى. كانت ألوان إشارات المرور تتناوب بلا داع في التقاطع الخالي. خرجت امرأة من الباب، وطلبت منكِ سيجارة. جلستما بجوار بعضكما لبعض الوقت. لكنكِ لا تتذكرين عن أي شيء دار حديثكما. أعطتكِ المرأة منديلًا، وأشارت بإصبعها إلى وجهها لتبين لكِ المكان الذي سالت عليه الماسكرا. كان جلوسكِ معها مُريحًا. فجأة شعرتِ بالسكينة. أزاحت المرأة شعركِ عن عينيكِ، وجمعته بمشبك الشعر الخاص بها. ابتسمت، وداعبت خدَّكِ بظهر كفِّها، وانصرفت.

في هذا اليوم شعرتِ لأول مرَّة أنك جميلة.

الجلد

رافقتِ لبعض الوقت صبي يُدعي "ماتيي"، لكن علاقتكما لم تستمر طويلًا. مرافقتكِ لـ"ماتيي" كانت كأنكِ تُرافقين صورة منكِ. منذ فترة طويلة لم تعد أنفكِ تُسبب لكِ أي إزعاج. تعلمتِ أن تتعايشي معها، تعلمتِ أن تحبينها. إن كل شيء متعلق فقط بنظرتكِ للأشياء. ففقدان الشهية، والشَّرَه المرضي، وحتى كمال الأجسام - هذه العلامات الثلاث تعجب التي توضع وراء كلمة الجسد، هي كلها نتيجة للنظرة الخاطئة. تمامًا كما حدث مع أنفكِ الجميل - فبمجرد أن قُمتِ بسحبه قليلًا، أصبح فجأة أنفًا عادية، لا هو كبير، ولا هو صغير. لدرجة أنه مع الوقت صارت لديكِ قناعة بأنه حتى لو كان كبيرًا لتعايشتِ معه، لأن المفزع حقًّا ليس الأذن المفلطحة، ولا الأنف الكبير، بل المُفزع حقًّا هو عرضه.

من أجل هذا ما زلتِ حتي اليوم ممتنة لـ"ماتيي". كان يُحاول جاهدًا أن يؤثر فيكِ. كان يقظًا، يُريدُ أن يضعكِ كُلكِ أمام المرآة التي نصبها لكِ. أخذتِ تنظرين لنفسكِ في هذه المرآة، وتدريجيًّا قُمتِ بتنظيف وجهكِ أمامها. تخلصتِ من كل الأحمال الزائدة: من النظارة الكبيرة، من القرط، والمساحيق والشعر الأشعث. أقلعتِ عن التدخين.

لم تكن هناك حاجة لموازنة الأنف الذي بدأتِ تُحبينه كما هو، على ما هو عليه.

ثم بدأتِ أول علاقة حقيقية لكِ. تعرفتِ على مهندس معماري محترم، وعلى الفور وقعتِ في حبه. كان المهندس يكبرك بخمسة عشر عامًا. كنتِ في ذلك الوقتِ تتوقين إلى كل ما يتمتع بقليل من الرشد. كان الرجال في عمركِ لا يزالون أطفالًا، وسرعان ما يصدمونكِ بتصرفاتهم الصبيانية، وبمزاجهم المُتقلب، وبحماقاتهم، وبخجلهم. بل إنهم صدموكِ أيضًا بمراياهم.

كان حُبكِ للمهندس فطريًّا. لقد أحببته على الرغم من أنكِ عرفتِ مبكرًا أنه مُتزوج. لم يُشكل هذا مُشكلة بالنسبة لكِ، فعلى ما يبدو أنكِ كُنتِ تُحبينه بلا تفكير. وكأنك قد توقعتِ أن هذا الرجل المؤمن اجتماعيًّا، الناجح، قد ينقل إليكِ جزءًا من نُضجه، مثلمًا يتم نقل الدم. كنتِ لا شعوريًّا تأملين أن يُيسر من عملية تحولكِ من فتاة، من بنت (من أي شيء كنتِ تضعين به نفسكِ) إلى امرأة. كنتِ تأملين أن يعمل بدلًا منكِ. وعَمِلَ. باستمرار كانت تفوح منكِ رائحة الطفولة. كان هذه الرائحة اللبنية المُخدرة التي تنبعثُ من بشرتكِ تُصيبه بالدُّوار. كانت علاقتكما عبارة عن نوع من المُقايضة التجارية. فالمُهندس كان يُشبعكِ بنضجه، وأنتِ تُشبعينه بطفولتك.

كان يحمل حياته على عاتقه كأنه يحملُ سـقالة بنـاء ثقيلـة، مُركبـة، في غايـة التعقيد. بينما كانت حياتُكِ أنتِ حتى الآن سهلة جدًّا. فارغـة كالبـالون – يمكنـكِ أن تتقاذفيها معه كلـما أراد. كـان يعـشق جـسدكِ. يتحـسس عظامـكِ مـن فـوق جلدكِ. كان يُمـسك عظـام فخـذيك بكلتـا يديـه، ويـنـدهش مـن كـل مـا تخفينـه بداخلكِ. بينما أنتِ تنحنين تمامًا لتضعين رأسكِ على صدره، وأنتِ مُغلقة العينـين. كنتما تتضاجعان حتى ينزلق كل المغناطيس المثبت على الثلاجة إلى أسفل لمـسافة متر كامل. كانت الأطباق تطير من فوق المطبخ لتقع وتنكسر على الأرض، وتنتـشر شظاياها في كل ركن، كأنها زهور خزفية ضخمة. كان الأمر ينتهي بكما على الأرض في غرفة أخرى. كان الباركيه يترك علامات في ظهركِ، وتظهر الكدمات على ركبتيـكِ ومرفقيكِ، وفي أماكن أخرى، وكنتِ بعدها تشعرين فجـأة وبـشكل جـلي بتـشريح جسدكِ، كل عضو منكِ قد تم فحصه، واختباره. كـان هـو يـشعر بـكِ أيـضًا. كـان يُقبل كل كدماتكِ، ويتخيل أن ما تحت بشرتك هو شيء حلو كعصير التفاح.

كان - في الوقت نفـسه - يُقبـل العـالم كلـه في داخلـكِ. العـالم المـوازي، المفتـوح أمامـه، الـذي يـستطيع أن يـزوره بحريـة، ويـستريح في داخلـه. كـان يُمـسك بخريطتـكِ في يـده، ويتحـركِ في عالمـكِ كـيفما يـشاء. يُمكنـه حتى أن يُـشكله بنفـسه، وهـو الأمـر الـذي فتنـه أكـثر مـن أي شيء آخـر. كـان أكـثر مـا يُعجبـه منـكِ في المرحلـة الأولى مـن علاقـتكما، أنـكِ كنـتِ

مستعدة للسير في أي اتجاه يُحدده لكِ المهندس. كـان بإمكانـه أن يغـرس بـكِ أي فكرة، ثم يراقبها وهي تنمو.

امتلئتِ بآرائه، بطريقة تفكيره، بل بتعبيراته ونغمة صـوته (أحيانًـا كـان يُلاحـظ أنكِ تقومين بحركاته نفسه، أو تستخدمين طريقته نفـسها في الإشـارة بيديـه). ومـن دون أن تُدركي ذلك، وقفتِ للحظات أمام المرآة. لم تشعري بسعادة كبيرة لأنـه يمـلأ حياتك. لكنكِ فهمتِ في وقت متأخر جدًّا، ما الذي غرسه بكِ هـذا الرجـل. فقـط في وقت لاحق بدأتِ تتخلصين من كل هذا الأشياء التـي كنـتِ تعتبرينهـا خطـأ خاصـة بكِ.



تَجْعِيدَة

في وقت ما من هذه الفترة لاحظت وجـود تجعيـدة صـغيرة، تظهـر مـن حـين لآخر بين حاجبيكِ، وخاصة عندما تفكرين بعُمق في شيء ما. كانت هذه التجعيدة الـصغيرة هــي أول مُقدمــة خجولـة للـشيخوخة، هــي المفتـاح الأول في شـكله الميكروسكوبي للوصول إلى وجهكِ. في بعض الأحيان كـان ينتابـكِ شـعور بـأن هـذا الشرخ الصغير انتقل إليكِ كالعدوى من المهندس المعـماري. ولأنـكِ كنـتِ تنـامين الليل في حضنه، فقد طُبعت ملامح وجهه على وجهـك، وسـتظل هكـذا إلى الأبـد. لقد كانت هذه التجعيدة، هذه الشَّرْطَة المائلة - التي تُرى بالكاد بـين حاجبيـكِ - كانت دليلًا على ذكائُكِ. كانت تظهر كل مـرَّة عنـدما تتـشككين في شيء، عنـدما لا توافقين على شيء، أو ترفـضينه. عنـدما تكـونين مُـستعدة لتغيـير شيء مـا، عنـدما سرتِ في طريقكِ رغم أنف الجميع.

التحقتِ بالجامعة بنـاءً عـلى نـصيحة المهنـدس. بـدأتِ تدرسـين تـاريخ الفن. وبدأتِ تفكِّرين، فمنحكِ هذا الحريـة. صـارت لـكِ شـعبية. تعرفـتِ عـلى أصـدقائه، شـاركتِ في الحفـلات المـسائية، كنـتِ تتـأرجحين في شـبكة علاقات هؤلاء الأذكياء الراشـدين، الـذين يلعبـون دور الـشباب وجبـاهـهم تتصبَّب عرقًا. كنتِ تستمتعين بهذه الألعاب لأنهـا كانـت تمنحـكِ إحـساسًا بأنــكِ تقــدمتِ في العُمــر. لقــد تعلمــتِ كــل الكــلام الــضروري. بــدأ

يُصبح لكِ آراءٌ قوية في السياسة، والبيئة، والاقتصاد، وفي أحدث أفلام هوليوود، وفي أي حرب تدور رحاها في أي بلد من بلدان العالم الثالث (وهـو الموضـوع المُفـضل في كل المقاهي ومحلات الحلوى الأوروبية).

كان المهندس يُراقب ما تفعلينه، ويزداد ولهًا، وهو بجواركِ. ليس هو فقط؛ بل جميع أصدقائه المسنين قليلًا كانوا يشعرون في وجودكِ بالنضارة. فمن ترسـاناتهم المملوءة بالنفتالين أخرجوا ابتسامات الشباب، وطريقة وإيقـاع الكـلام في المرحلـة الثانوية. قاموا بالتنقيب في مقابر العصر الحجري الحديث لحياتهم، وأخرجوا منها العبارات المُتحجرة، ووضعوها بغرابـة في أفـواههم، وحـاولوا التقـرب منـكِ وهـم يضعون هذه الحجارة في أفـواههم، فـضحكتِ مـن هـذا. لقـد وقـع كـل أصـدقاء المهندس من الرجال بلا استثناء في غرامكِ، وحاولوا بـشتَّى الطـرق إغـواءكِ (لكـن من الصعب حدوث هذا وكل منهم يضع حَجَرًا في فمه).

بدأتِ تستمتعين بالحياة. أصبحتِ مجنونـة بـالفنون. قـرأتِ الـشعر الكمـي غـير المفهوم، والنثر الكسري. ترددتِ على معرض الفن المفاهيمي: كنت تُشاهدين بانبهـار أغطية أرضية صـالات الألعـاب الرياضـية المعروضـة، والأسـلاك، والعِـصِي، وصـندوق الحليب (كان المعرض يُسمى "اللا نهاية"، أو ربمـا "الخلـود"، وقمـتِ بقـراءة كتـالوج المعـرض البـالغ ثمـانين صـفحة، والـذي يوضـح لـكِ مـا هـي المعروضـات التـي يُمكـن أن تُـشاهدينها في فاترينـات العـرض). أخـذتم تتـشاجرون حتـى الـصباح عـلى صـندوق الحليـب، وكنـتم تـشعرون بـأنكم في حالـة مزاجيـة رائعـة. كنـتم

تحتشدون حول هذا الصندوق البائس، وتتدافعون، وتنتشرون، وكل منكم يرفع إبهامه للصندوق مثلما يحدث عند رفع البصمات، لأنه في هذا الصندوق يُسمع صوت نبض هذا العصر وهو يخفق خفقانًا شديدًا. نبض الطليعية المعاصرة. لقد عرفتِ أخيرًا إلى أين تنتمين.. إنكِ تنتمين إلى الناس مُرهفي المشاعر، إلى كل هؤلاء الراغبين في رؤية الجمال الهش لهذا العالم، رؤية الجمال في كل ما يختارونه. فجأة رأيتِ الكون في صندوق الحليب هذا. أقمتِ تحالفًا سريًّا ضد بقية المجتمع، اتفاقًا من أجل أن يصبح العالم أكثر تعقيدًا، من أجل أن يُصبح الفن أكثر تعقيدًا. فجأة أصبح كل شيء واضحًا بالنسبة لكِ.

كنتِ تقضين اليوم كله في السينما الطليعية، حيث تراقبين كيف تتحرّك نقطة الضوء على الشاشة، أو تُراقبين في الواقع جثة الكلب وهي تتحلل. كنتِ تترددين على المسرح، حيث تتابعين كالمخدرة كيف يؤدي الممثل حركة واحدة وحيدة على مدار ساعتين، إلى أن يسقط مُنهارًا من الإنهاك. كنتِ تترددين على الحفلات الموسيقية الجادة الطيفية والمتنافرة، وحفلات موسيقى المعادن الإسكندنافية، والضوضاء اليابانية – كان يبدو لكِ كل هذا رائعًا وذكيًّا، أمَّا المهندس (كان يجلس والسدَّادات في أذنيه لأنه مر بمرحلة الذكاء هذه من قبل) فقد كان يجلس بجوارِكِ، وبدلًا من أن ينشغل بالطليعية، كان يتحسس خارطة جسدكِ، بينما يزداد شعوره بالدُّوار كأنه يرى البُقعة السوداء للضغط المنخفض. كان يُحبكِ إلى حد الجنون.

الضغط المُنخفض

في الحقيقة، لم يكن هو من يُعاني من الضغط المنخفض، بل أنتِ. فمنذ طفولتكِ كانت يداكِ تتجمدان باستمرار، بل إنكِ كنتِ تشعرين بالبرد حتى في أيام الصيف شديدة الحرارة، لكن هذه المرَّة كنتِ في شهر يناير، خمس عشرة درجة تحت الصفر. قضيت الأيام الطوال في حوض الحمَّام الممتلئ بالماء الساخن، لكنكِ على الرغم من ذلك لم تشعري بالدفء. كان المهندس يجلس بجوار الحوض، حيث تفكران معًا في الطرق المختلفة التي يُمكنها أن توفر لكِ الدفء.

أخذكِ إلى فيلم عن خط الاستواء. جلستما في دار سينما مخصصة للطلاب في مكان ما من قلب المدينة، حيث كانوا يعرضون أفلامًا قديمة جدًّا مُقابل نقود الطلاب القليلة. في القاعة يوجد خمسة أشخاص تقريبًا، جاؤوا مثلكما إلى السينما ليختبؤوا من البرد الشديد. عاشقان يغفوان، ورأس كل منهما تتكئ على الآخر. كانت الحبيبة تنام نومًا عميقًا ككتلة من خشب، شفتاها مفتوحتان جزئيًّا، ويُرى لُعابها اللامع في زاوية فمها. في الصف الثامن يجلس رجل مُسن، وجهه ضعيف، وتنعكس عليه إضاءة شاشة التليفون المحمول، يتحرك على لوحة المفاتيح إصبعان سمينتان من أصابعه. أمَّا بقية

الجمهور فيتكون من اثنين من المثقفين في الخامسة عشرة من العمر، اللذين على الرغم من الصقيع الموجود في الخارج رفضا بإصرار التوقف عن التفكير، جلسا في الطرف المُقابل من القاعة، أحدهما أخذ يدون ملاحظاته في مُفكرة، والثاني يسخر من الأول، ينظر بازدراء إلى ما يكتبه، ويتأفف منه. وعلى شاشة السينما، يُعرض فيلم وثائقي عن الحيوانات بالأبيض والأسود. قديم جدًّا. على الأرجح أن من قام بتصويره هو "ليوناردو دا فنشي") بكاميرا "أوبسكورا". على الشاشة المشوشة المخربشة تظهر غابة بدائية يمتطي فيها الإنسان الفيلة، ويمتطي القرد كلبًا، مُحاولًا أن يُقلد الإنسان. هناك صبي يركل فهدًا ميتًا. ترويض الفيلة البرية؛ يتم تقييد الفيلة البرية بلا طعام لمدة شهرين حتى تُروض. تشرب القردة والجراء الصغيرة الحليب من ثمرة جوز الهند. تقوم الأم قبل النوم بمداعبة الأطفال، وعضهم، فيضحك الجميع.

ساعد هذا على شعوركِ بالدفء للحظات. وفي طريقكما عائدين من السينما، توقفت سيارة عند الرصيف. كان بها فتاتان من الأناركيين. يعرفهما المهندس معرفة جيدة. كادتا تتجمدان من البرد، فلقد قامتا احتجاجًا على النظام بالإقامة في عِلية أحد المنازل السكنية على ضفة النهر، بعد أن قامتا باقتحامها، لكن هذا الأمر امتد لفترة طويلة، فكانتا تقضيان الأيام مدفونتين في الفراش، تتبادلان القُبلات بشكل متواصل، وتحلمان بالطبقة العاملة، وبالعدل، وبأشياء أخرى لم يعد لها وجود

منذ زمن طويل، وتُحمِسُ كل منهما الأخرى بالحديث عن الثورات المختلفة. كان لديهما مدفأة صغيرة، تحرقان بها الكُتب التي سرقتاها من مكتبة المدينة القريبة لتستدفئان بها. كانتا تُقطعانها بالبلطة على ما يُشبه "القرْمَة" الخشبية.

توقفت هاتان الفتاتان الحالمتان بسيارتيهما الإسكودا القديمة شبه المُتهالكة عند الرصيف. لقد قامتا في الربيع الماضي بنزع السقف باستخدام قاطع اللِحام ذاتي التوليد، لكن ومع حلول الخريف وظهور أولى بوادر الصقيع، قامتا بلحامه مرَّة أخرى. بعد حديث قصير معهما، تبين أنهما ذاهبتان لطلب الدفء في إحدى الحفلات المسائية. وبمجرد أن سمعتما كلمة الدفء، صعدتما إلى السيارة، وذهبتما معهما.

توقفت الأناركيتان خارج المدينة أمام مبنى كبير من الطوب شبه مُنهار. يوجد بجوار موقع للبناء، مشروع فاشل، أساسات لشيء ما لم يكتمل. هيكل خرساني تم تشييده منذ عدة سنوات، واستغرق بناؤه بضعة أشهر، لكنه في وقت لاحق تصدَّع، واعتلى الصدأ أسياخه الحديدية التي كانت تُطلُ منه كشعر اللحية، وأصبح المبنى قذرًا، وتعلوه الحشائش، ومُغطى بكتابات سيئة اعتلته كالطفيليات.

قامت واحدة من الأناركيتين باحترافية بنزع عدَّاد السرعة من السيارة، وعلقته من أسلاكه في رقبتها – لقد كانتا ذاهبتين، كما

علمتما للتَّوِّ، إلى حفلة لفرقتين غنائيتين عريقتين في الـساحة الطليعيـة الأوروبيـة. بدأ الجليد يتـساقط، مـررتم عـبر الحـشائش الـشَّائكة المتجمـدة بفعـل الـصقيع، ودخلتم سريعًا إلى المبنى.

افتتح الأمسية مغني الراب البولندي "دوكلا"، حيث كـان يـصرخ مغنيًّـا القـصائد الفدائية اليسارية وهو في حالة من الهلوسـة، ومدعومـة بإيقـاع ضربـات قلبـه التـي تُسمع عبر سماعة طبيب. اشتريتم مشروبًا من البار العشوائي الذي يتكون من مواقد وثلاجات قديمة، وبعد عدة فقرات تسلم الميكروفون على المسرح مغني الرَّاب الثاني. كان اسمه الفني يتكون من باركود مـأخوذ مـن غـلاف نـوع مـن البـسكويت (كـان الجميع ينادونه بأول ثلاثة أو أربعة أرقام، لكن ولا واحد منهم تذكر الباقي). أخذ مغني الرَّاب يؤدي أغانيه مع الفرقـة الطليعيـة الـشهيرة "تـسكو". كـان نباتيًّـا، لا يتعاطَى المُكيفات، وسادي ماسوشي، ويمتلـكُ مجموعـة كاملـة مـن القـيم. كانـت الحفلة تُشبه الطقوس، فقائد الفرقة يغـوص في هـذا "الكـولاج" العميـق المُظلـم، ويُردد أكواد المُستحلبات، والمُحَلِّيَات، والمواد الحافظة، وتعليمات الاتحاد الأوروبي، وأسعار الأسهم المختلفـة، ومـا شـابه ذلـك. أمـا المـشاهدون فكـانوا في حالـة مـن الغيبوبة.

كنتما تقفان تقريبًا بجـوار المـسرح، والحـشود تتحـرَّك كـالأمواج مـن حـولكما مطالبة بمزيد من الأكواد والتعليمات، عندها صرخ المهندس في أُذنكِ قائلًا:

- الآن سأُعرفكِ على شخص ما.. هذه "سيلفيا".

صافحتِ هذه المرأة التي ابتسمت لكِ ابتسامة غريبة وخفيفة، مرَّت بـشفتيها كالموجـة ثـم اختفـت. بجانبهـا زوجهـا "مـارتين"، تبـادلتما الابتـسامات، كـان في الخامسة والأربعين، لكنكِ لن تجدي في العالم من تظهر عليه علامـات الكِـبر مثلـه وهو ما زال في هذه السن. فقد تجمع الشعور بالإعياء في عينيـه وأسـفل منهـا في شكل هالات سوداء وكأن الظلام سينتشر من وجهه.

كان ابنهما معهما أيضًا.

قال الابن، وهو يُصافحكِ من دون أن يتحرك:

- أنا "أوندرشي".

شعره أسود وعيناه عميقتان، تتأرجح في عنقه سلسلة: محـارة. صـدفة صـغيرة معلقة في طوق من الجلد. كانت الصدفة تلمس جلده، فقمـتِ بتلقفها بعينيـكِ، وفجأة شعرتِ بدوار خفيف، وبصمم في الأذن. كأنك للحظـات قـد سـمعتِ حقًّـا صوت هدير البحر، الذي ينساب منها.

أثناء الكلام لاحظتِ بشكل غـير مُـريح بنيـة جـسد المهنـدس المعـماري بجوار جسد "أوندرشي". لقـد كنـتِ تعـرفين كـل هـذه الأشـياء، لم يحـدث أي تغيـير، فقـط كـأن شخـصًا مـا قـد أدار مفتـاح الـصوت ناحيـة اليمـين

لُيظهر بعض التفاصيل الصغيرة. رمشتِ بعينيكِ سريعًا، فاختفت الصورة. أخذ المهندس يخبر "مارتين" بحكاية ما، وعاد كل شيء إلى سابق عهده. فقط كان رأسكِ يؤلمكِ قليلًا، مثلما يحدث عندما يرتدي الإنسان نظارة طبية لا تتوافق كثيرًا مع قوَّة بصره.

انتبه المهندس لذلك أيضًا، وأخذ يُتابع جبهتك. لثوانٍ ظهرت به تلك التجعيدة التي يعرفها جيدًا. بدت تقريبًا هكذا (/)، وهي تعني التشكك في شيء ما. لسبب غير معلوم كانت يداه اللتان تُمسكان بخارطة جسدك ويقرؤها بأمان، ترتعشان. اعتذر مُرتبكًا، وذهب لُيحضر شيئًا يشربه.

الحفلة مستمرة. كنتِ تقفين عند البار، ورأسكِ مطأطئ، وتبتلعين الفودكا. تحدثتِ مع "أوندرشي" عن المشاكل الأخلاقية لمربي الدواجن، وعن دواء "زاناكس"، وعن اليوجا، وعن المواد الإباحية، وعن الأسمدة. كنتما مُتفاهمين في كل شيء. كانت الحشود ترقص من حولكما. مثل هذه الحفلات كانت موضة في ذلك الوقت – امتلأ المكان لدرجة الانفجار. هناك كثير من الشباب في نحافة ورشاقة الغزلان يرقصون على الإيقاع، ويرتدون بنطلونات ضيقة ونظارات ضخمة. بعضهم كان من أصحاب اللحي. الأغنية الأخيرة، تم الإعداد لها، وتقديمها في برلين ومدن أخرى. كان رائجًا حينها أن تبدو وأنت في العشرين من عمرك عجوزًا ومُستهلكًا. رقص هنا كثير من الشباب الحقيقيين. يكتبون

رسائل قصيرة على الفيس بوك عبر الموبايل.. تقول إنهم يرقـصون الآن. الكـل يـرقص بمن فيهم مصممو الـ"أنـا" الخاصـة بهـم، ومبـدعو الـصور الرمزيـة عـلى صـفحات التواصل الاجتماعي.

أيضًا كان يرقص هنا مـن يُـسمون بـالثلاثيين، هـؤلاء الـذين يتميـزون بـالوعي والصفاء، وما زالوا يستمتعون بشبابهم، فقد تجـاوزوا كـل صـدماتهم، ويتطلعـون بغموض إلى السعادة، أو على الأقل إلى السَّكِينة. بعضهم في أوَّج قوته، وبعضهم ما زال يقف على قدمين هشتين لشهور طويلة بعدما احترق مرَّتين أو ثلاثًا، وبعـد أن قاموا تحت إشراف الأطباء والأخصائيين النفـسيين بتفكيـك روحـه إلى أجـزاء، كـما يفعل الجندي بسلاحه الآلي، لكي يعود إلى سـابق عهـده، مـستعدًّا لتحقيـق مجـد جديد في اتجاه النجوم.

رقص هنا كل هؤلاء الناس المهووسين بالحياة، المهووسـين بأجـسادهم. كـل مـن يُمثلـون الرفاهيـة المفرطـة، أولئـك الرجـال الهـشة (لأن الرجـال في هـذه الفـترة أُصـيبوا بالهـشاشة). أولئـك الـذين يحملـون أجـسادهم – بحـرص -عـلى عـاتقهم، وكأنهـا ستنفـصل عـنهم في أي لحظـة. هـؤلاء الـذين يُمارسـون الـتمارين الرياضـية بعناية في أوقات فراغهم، وبعنايـة يعملـون عـلى تكبـير كتلـة عـضلاتهم، ويفكـرون في أدق التفاصـيل سـعيًا للوصـول إلى كيفيـة الـتَّخلُّص مـن المـواد الكيميائيـة التـي تتكـون منهـا أجـسادهم. هـم يعرفـون جيـدًا أنهـا تتكـون مـن خلـيط مـن

الفسفور، والحديد، والكربون، وكميات أخرى من المعادن والمـواد الطبيعيـة، والتـي يجب تدعيمها من أجل الوصول إلى الحالة المُـثلى. إنهـم أولئـك الـذين يُفكـرون في الملح وفي المغنيسيوم. وفي الجرعات اليومية. وفي مستواها المثالي في الدم، مما يـؤدي إلى ضبط كامل لهذا الجسد، وإلى حالة مزاجية جيدة، وإلى الإبداع والإنجـاز. هـؤلاء يمثلون تجسيدًا حيًّـا لجـداول "منـدلييف" للعنـاصر، إنهـم مـدمنو الجـسد، اللـذين يتطلعون بغموض إلى السعادة، لكن الجسد المُحيط بهم انغلق كالمصيدة.

كانت ترقص هنا أيضًا امرأة في الخمسين من العمر، كانت تضحكُ على كـل شيء. تضحك بصوت مُرتفع، وبلا توقف، مفتوحة الفم. أنت تعرفينها؛ لقد قرأتِ في مكـان ما أن الضحك شيء صحي. وهي تضحك باستمرار، وعلى أي شيء ـ تضحكُ حتى لو لم يكن هناك أدنى سبب للضحك، وتضحك حتى على النكات التي لا تُضحكُ كثيرًا، وهو ما يجعل رواة هذه النكات يمتنون لها، ويُساهم ذلك في زيادة شـعبيتها بـين النـاس. إنها تضحك لكي تعيش مئة عام. تكشف عن أسنانها وجزء من لثتها، تُصدر الأصوات، وهي تعتقد أن سـنوات عمرهـا ستتـصاعد مثـل الكيلـو مـترات في عـدَّاد المـسافات. تضحك بجسدها كله، بل حتى جمجمتها تضحك من تحت جلدها.

بدأ الفجر ينبلج، ضوء خافت يلوح في الأفق، خمس عشرة درجة تحـت الـصفر. بـدأ الـثلج يتـساقط، ربمـا هـذا لـيس ثلجًـا، ربمـا الهـواء نفـسه

قد تجمَّد. كانت الطرق خاوية، ومُغطاة بالثلج. سقط الثلج أيضًا على موقع البناء القريب، وعلى مستودع الألمونيوم، الذي كان من وقت لآخر يُصدر صوت صرير مشؤوم بفعل الصقيع. تلوح المدينة في الأفق. ما زالت ساكنة في الصباح. على أطرافها توجد حديقة النباتات، هناك صوبة ضخمة تتوهج بداخلها نماذج من المنطقة الاستوائية. غابة استوائية صغيرة وساخنة في منتصف يناير، مُخبأة في صوبة، تبدو كقطعة من الماس حجمها مئة متر. على زجاج الصوبة تتلألأ بلورات الثلج، أمَّا أنتِ – كانتا يداكِ قد تجمدتا بسبب ضغطكِ المُنخفض - فكنتِ تتطلعين بشدة إلى الدفء.

نظرتِ إلى "أوندرشي". ابتسم لكِ. كنتما تقفان أمام القاعة التي ما زالت تُجلجل بالإضافات الأخيرة. رأيتما واحدة من الأناركيين، وهي تتحرَّك في قاع خزَّان الحريق المهجور خلف المبني المشيد من الطوب، وتضرب بالعصا النباتات الشوكية المتجمدة. حان الوقت للمغادرة. أخذ "مارتين" يصرخ في المهندس من خلف باب القاعة الزجاجي:

- هل بداية الكون جاءت بعد الانفجار الكبير، وأين سيحدث لاحقًا هذا الانفجار؟

فأجاب المهندس قائلًا:

- لن يحدث في أي مكان.

ثم صَمَتْ.

جلسوا على الصناديق مع مغني الرَّاب "6482 إلخ، إلـخ"، ومعهـم عـدد قليـل من الناس، وأخذوا يشربون الفودكا. كان المهندس المعماري مُتعبًا. نظر إليـكِ مـن خلال الزجاج بعينين يغلبهما النعاس. ثم أخذ ينظر إلى راحة يده. وكأنـه يُريـد أن يصرف تفكيره بعيدًا عن كل هذه التجاعيد، أخـذ يتحـدث مـع شـخص آخـر عـن الحرب التي يدور رحاها في إحدى بلدان العالم الثالث.

بدا مُتعبًا، وذابلًا، ورثًّا. أخذ بأصابعه الطويلة المرتعشة ينفض الرماد عن كُمِّه: كان مُسنًّا! رأيتِ رجلًا تمكَّن الشيب من شعره. رجلًا منـسوجًا مـن ذكائـه الخـاص مثل خيوط العنكبوت، ومسجونًا في نظامه القائم على العمـل، وفي تركيبـة حياتـه المُعقدة والغامضة. كان يحـكي شـيئًا مـا بـصوت خافـت، يتجـول في بلـدان العـالم الثالث، في البلاد التي لم يرها في حياته، ولن يراها، مثله مثل البـستاني المُتعـب الذي يتجول في حديقة مليئة بالشجيرات الميتة، وهو يُعاني من الماء الأبـيض في عينيه.

نظر إليكِ للمرَّة الأخيرة، ونظر إلى "أوندرشي". مدَّ يده قليلًا. ربما أراد أن ينهض، أن يقول شيئًا، لكنه تراجع وأخفض يده. ابتسم بحزن. كأنه قد قام عبر الزجاج بإعطائكِ خارطتكِ، يا "آنَّا". الخارطـة التـي رسـمها بمقيـاس واحـد إلى واحـد، لكنـه لم يـستطع

قراءتها. لقد منحكِ كثيرًا من الوقت والجهد، والآن قد آن الأوان ليخلد إلى النوم.

ذهب "أوندرشي" إلى المدينة. وبعد قليل ذهبتِ أنتِ وراءه.

كانت هذه هي آخر مرَّة يراكِ فيها المهندس المعماري.

أخر مرَّة يرى فيها جبهتكِ.

ويرى فيها نفسه.

عبارة عن (/).



"دوكلا".. "داركوف".. "سَالْمْ"



ماذا تبقَّى؟ غطاء يعلوه نبات "الأرقطيون". خِتم خرسانى على الأرض. يقف عليه. يمشي، يقف، يضرب بقدميه - يُسمع في الداخل صوت طقطقة، لكن لا شيء يحدث، كأنه يطرق على جبين بقرة. مئة وخمسون، أو مئتا متر. منجم خاوٍ. الجبل كله فارغ.. تجويف واحد كبير مستنزف حتى القاع. تم تطهير المكان من فحم "الأنثراسيت" الصلب. الأرض مبللة بصورة رهيبة أسفل التل. العشب ينمو وسط الأسفلت. كل شيء غارق في الظلال. عند الباب يجلس رجل أسود، يتحرك بحرص. خرسانة، وخشب مُشبع بالمياه، الدهان يتساقط من فوق الصفائح المعدنية المموجة، والريح تنزع الجص فيسقط على الأرض محدثًا صوت طقطقة خفيفة، كأن شخصًا ما يخطو على ثلج قديم. مُشمع غارق في المياه. أوراق الأشجار تتراكم على النافذة. وبسبب نقص الإضاءة صار كل شيء في لون الحليب، وينفذ إلى القاعة كأسنان طفل لبنية.

حدث خطأ ما في أحلامه، عَلِقَتْ. قال لنفسه: "إن هذا كثير جدًّا بالنسبة لشخص واحد. كثير من الوقت بلا داعٍ، أكوام من الذكريات عديمة الفائدة، من الضروري أن تضع لها نظامًا، وتبحث عن مغزاها، وتقلبها في يدك. كانتا يداه ثقيلتين وشائختين، ومفرودتين على ركبتيه، باردتين وغريبتين عنه، كأنه عثر عليهما في مكان ما من الغابة. كفَّاه كبيرتان كالأطباق. كفَّان هائلتان تملؤهما التجاعيد. عليهما أوساخ لا يمكن غسلها أبدًا. بقايا أصباغ. أوساخ قديمة من

الفحم من الفترة التي كان ينقِّب فيها في بـاطن الأرض. لقـد ولَّى كـل شيء. فقـط أسماء مناجم الفحم هي التي ظلت عالقة في رأسه. تمامًا مثلما يفعـل الأطفـال في منتصف الصيف الذي يحوم حولهم كمروحة الطائرة الهليكـوبتر، حيـث ينحنـون ليبصقوا في البئر. أسماء تلمع مثل اصطدام البصق بسطح الماء المُعتم: "كوبلـوف"، "باسكوف"، "لازي"، "دوكلا"، "داركوف"، "سالم". أسـماء غـير معروفـة اسـتُخرجت من أعماق الأرض لترى ضوء العالم.

وفوق كل شيء يُوجد بُرج التعـدين.. شاشـة عـرض للفـراغ الـذي يتحـرك عـبر المنطقة المحيطة.

شاشة عـرض الأحـلام. ذكريـات الظـلام.. عـشرون عامًـا في فوهـة الجحـيم، والحرارة، والعطش، والفحم الذي يبدو كظلام بلـوري، وجـدران مُبللـة بـشكل دائم، لكن هذا البلل لا يصلح للـشرب، لأن كـل شيء سـام. يـستيقظ في الليـل فزعًا، يرى نفسه من بعيد.. عامل منجم عجوز، يرى في أحلامـه منـاجم فحـم، وأكوام من طيور الكناري الميتـة، وخيـول عميـاء أدخلوهـا إلى المنـاجم عنـدما كانت صغيرة لا تقوى عـلى الوقـوف، والآن قـد تكيفـت مـع الظـلام، فتجـدها تجحـظ مُقلتهـا العميـاء كالـسمكة، وتجـر زحافـة مُـسطحة محملـة بأحجـار الفحم. حيوانات غريبة يُمكن أن يقتلها شعاع واحد مـن الـضوء. كـانوا أحيانًـا

يخرجونهم إلى المرعى في الخارج وقت اختفاء القمر، ولكنهم كانوا يعودون في فزع إلى الحفرة بسبب نقص الكبريت في الهواء.

يسمع دوي صوت تنفسها القادم من العدم. يستيقظ وينظر فزعًا إلى الظلام، ثم يضع يده على صدره، ويحاول التقاط أنفاسه، فقد كانت الخيول في مكان ما بداخله تجرُّ الزلاجات المحملة بالقطران والرصاص والغُبار. ما زال يشعر بذلك، وما زالت رئتاه السوداوان الملوثتان والممتلئتان بالمعادن الثقيلة تتحركان في داخله. لم يكن مسموحًا بالتدخين تحت الأرض، كان يستلقي على ظهره، ويحلم بالتبغ، ويُمسك بالمطرقة الهوائية: إبرة حديدية في حجم يد الطفل، ويضرب بها عِرْقَ الفحم الموجود فوقه. سقط الغبار على وجهه كأنه ثلج يأتي من اتجاه مُعاكس. في الأسفل كان كل شيء سيئًا، كل شيء سلبي. الضمان الوحيد بأن يظل الشيطان نفسه نظيفًا، وناعمًا كالطفل، هو أن ينام مقوسًا في مكان ما داخل كتلة صخرية كبيرة. انظر إلى نفسك، وإلى كل المحيطين بك، الجميع يتغيرون، الجميع يكبرون، فقط الأعين ما زالت تحتفظ بلونها الحقيقي. أي نوع من المخلوقات أنتم؟ أنتم عالقون على هذه الحدود الغريبة، أنتم لا تنتمون إلى أعلى، ولا إلى هنا. هذه المخلوقات التي تستخرج المعادن، امتزجت بالبيئة المحيطة، مُحاكاة مثالية، نوع جديد من المخلوقات، فقط أعينكم تبدو كطلقة ضلت طريقها إلى عالم آخر؛ إن لب الأرض هو ما يدفئ ظهرك، أنت تخترق بهذه الآلة الكوكب كله، لا يوجد عمل أسوأ

من ذلك، لكن مع الوقت ستنسى معاناتك، ومع الوقت ستعتاد على كل شيء. انسى كل ما تركته على السطح، واهبط إلى مكان أعمق من ذلك. عندما أُكمل العد إلى ثلاثة، ستتوقف عن كونك إنسانًا.

لم يكن مسموحًا أبدًا بالتدخين تحت الأرض، كنتَ تقومُ بإعداد كوكتيلات بشعة من القطران، من ماء أسود تضع به التبغ الخام، بعدها تقوم بتفتيت لفائف السجائر في هذه العصيدة، ثم تأكلها تحت الأرض، حتى إنه بعد عدة سنوات تحولت أسنانك وأشياء أخرى كثيرة في داخلك إلى اللون الأسود. كان الجميع يأكلون هذه العصيدة السلبية. كنتَ ترى أسنانًا بيضاء تلمع في الظلام، وقرودًا سوداء مجتمعة حول صناديق الغراء النيكوتيني.. قرودًا بائسة على مسافة مئتي متر من سطح الأرض، وتُرضِع أنفسها القطران. من المستحيل أنكم كنتم أطفالًا في يوم من الأيام. أنتم غُبار. الآن قد رأيت هذا بنفسك. أنتم فسفور، وحديد، وفحم، وبضعة لترات من الماء. في حال وجود الماء يتجمع الغبار. إنكم تشتاقون إلى الماء إلى حد الجنون، لكن أجسامكم تخاف هذا إلى حد الرُّعب خشية أن يختفي هذا الغبار.

هل تتذكَّر ما حدث هذه المرَّة؟ لقد عثرتم على بلورة بحجم المنزل. إن الكون غني جدًّا، هناك عالم آخر تحت الأرض، هناك تنمو المعادن، أيام رأيت فيها ذلك بنفسك. كان باستطاعتك أن تجلس وتسمع صوت خشخشة المعادن وهي تَكْبُرْ. كانت الأرض كُلها تبغضك، وكنت

تعرف أنك لا تنتمي إلى هذا المكان، في هذا العالم المقلوب ليس الحجر الذي ينمو هو ما يبعث على الشك، بل أنت الذي تبعث على الشك. لقد نجوت من انهيارين أرضيين.. ابتلعت الأرض أصدقاءكَ أمام عينيك، وأخذت منك إحدى عينيك، وكسرت لك فقرة كنت تُسميها أطلس. لبعض الوقت كنت تحمل العالم كله على عمودك الفقري، وبرعب كنت تشعر بحركة المليارات من البشر على لوح القشرة الأرضية الذي كان يحمل عظامك. استيقظت في وحدة العناية المركزة البيضاء، جسدك مُحطَّم، خرطوم من الدم، بجوارك جهاز التنفس، خط الحياة الأخضر، التقاعد، وضعوا لك عينًا جديدة، عينًا زجاجية. كنت تقوم في بعض الأحيان بنزعها من رأسك، وتستخدمها في التنبؤ بما سيحث كأنها بلورة مسحورة.

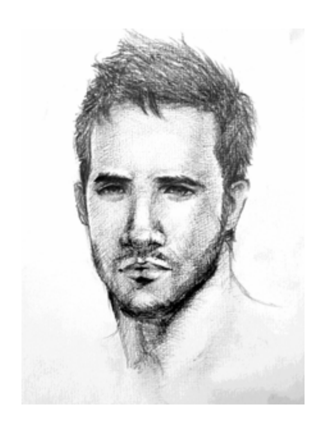
لقد مرَّ زمن طويل على كل ما حدث، سيبدأ مساء آخر، فالأمسيات تحوم حولك. تخرج من الغابة، تدور حولك كأنها حيوانات جائعة. الصمت في كل مكان. لا يخترق هذا الصمت إلا صوت تجمع الماء في كل حالاته. لقد قمت خلال السنوات القليلة الماضية بتدخين كم غير آدمي من التبغ، لكنه على الرغم من ذلك ما زال قليلًا، فما زال الهواء نظيفًا جدًّا.

ذهبتَ إلى المدينة حاملًا الزجاج في عينك، والألم في فقراتك. أول المنازل ذات الحدائق. أخذ الكلب ينبح بشدة على صورتك الظلية وهي تبتعد في الشارع. وعندما اختفت، أخذ ينبح لبعض الوقت في اتجاهها،

ثم أخذ ينبح على المصباح، ثم على الشجرة، وعلى السياج، وأخيرًا أخذ ينبح على نباحه، الذي ارتد إليه من نوافذ المنازل المُظلمة، فأخافه. صمت، وظل لعدة دقائق غير مستوعب لما حدث. قدَّم ساقًا وأخرى، ثم عوى بصوت ضعيف، وتسلل إلى سقيفته. استدار مرَّتين في الداخل، ثم أطل بمقدمة فمه عبر الضوء الأصفر الذي يخترق البناية الخرسانية.. فتحتا أنفه، لونه أسود، وتنتشر به خلايا كبيرة تُشبه أنسجة الكبد. تحرك فمه عدة مرَّات جانبًا، تنهَّد طويلًا، ثم ظل ساكنًا.



المهندس المعماري



1

بدأ الظلام يسود في الـداخل بـشكل أسرع. أحـد جـدران المبنـى بالكامـل مـن الزجاج. من خلفه – كإسقاط أو كشيء مزيف – توجد حديقة كبيرة. كان الجـدار الزجاجي يعكس صورة الغرفة بشكل مُشوَّش. المكان. إن كل شيء يتعلق بالمكـان. أخذ صوت طقطقة اللوحة ينخفض مع قرب انتهاء العاصفة. هناك غيوم متفرقـة تتحرَّك في السماء، بينما تتساقط قطرات الماء من كل واحدة منها.

لكن في الداخل يوجد منظر آخر وقـصة آخـرى. هنـاك مزهريـة مقلوبـة عـلى الطاولة الزجاجية. المياه تتـساقط عـلى الأرض، وتتـدفق مـن بـين الزهـور النـادرة المحطمة، والتي تُشبه أزهارها الكبيرة ذات أهداب عيني الإنـسان وأجـزاء أخـرى مـن جـسده. عـلى الأرض ملابـس مبعـثرة.. رابطـة عنـق، وسروال، وأزرار قمـيص البدلة، وقميص نسائي أحمر، وفردتا قرط من الياقوت تُشبهان قطرات الدم. ستارة مزركشة سقطت بحاملها. طاولة ومقاعد مقلوبـة. شـظايا أكـواب نبيـذ محطمـة. سـيقان عاريـة. جـسد. امـرأة. شـعر أحمـر. امـرأة ذات شـعر أحمـر عاريـة عـلى السجادة. تنظر شاردة إلى الفراغ، تخفض عينيها، كف رجل مطبوعـة عـلى كتفهـا. بعض الندوب، ما عدا ذلك فهي جميلة.

كل شيء نسبي. المهندس المعماري هو من فتح الماء. الآن يقـف في الحـمَّام أمـام المرآة، ويُراقب ذات الشعر الأحمر، التي كانت الآن قد أغلقت عينيهـا تمامًـا، وبـدت كالنائمة، أو كالميتة؛ نظرًا لهذه الفـوضى المحيطـة. كـان المهنـدس المعـماري في الفـترة الأخيرة يتشاجر مع كل النساء اللاتي أحببهن. لم يتمكن من تقديم تفسيرًا شافيًا لهذا، لكنه كان يشك في أن الـسبب يكمـن في داخلـه. شيء يُجـبرهن عـلى الركـل والعـض. كأنهن يُردن أن يتأكدن من أنه لا يوجد شخص ما مختبئًا في مكان عميق تحت جلـد هذا الجسد الواقف على مشارف الـشيخوخة. تكـرر الـشيء نفـسه مـع ذات الـشعر الأحمر. في الواقع كان الوضع معها هـو الأسـوأ عـلى الإطـلاق. أخـذت تـضربه كأنهـا مُسعف مجنون يحاول إنعاش مريض بقبضة يده. هو نفسه لم يكن يعرف مـا الـذي تُريد أن تُنعشه في داخله.

الآن يقف عاريًا أمام المرآة، أخذ يمسح بطرف المنشفة المبلل الـدم الـذي سـال مـن شفته الممزقة. بينما آثار أظافر المرأة محفورة في كتفيـه وظهـره. شـطف وجهـه بالمـاء، ونظر إلى نفسه في المرآة. التعب ظاهر على كل ملامحه، شعره أشهب، وعيناه مجهدتان من قلة النوم. كان رمشه ينزلق إلى أسفل بلطف. مسح على وجهـه لـكي يوقـف هـذه الحركات العصبية. جاء في باله بأن كل شيء نسبي، وأخذ ينظر إلى المرأة مرَّة أخرى.

خرج أمام المنزل مُرتديًا سـترته الـسوداء. مـا زال يـسمع صـوت الرعـد قادمًـا مــن بعيــد. تجــول ببــصره في الحديقــة. انتهــى الــصيف. قطــرات المــاء

على فروع النباتات وعلى الحشائش. هناك بقايا ضـوء مـا زالـت موجـودة في الأفـق. ركض كلب نحوه من الزاوية البعيدة للحديقة. إنه الكلب السلوقي من فصيلة كلاب الصيد. يشبه ثعبانًا يسير على أربع أقدام. كان المهندس المعماري بصفة عامـة يُحـب الأشياء التي ينعكس باطنها على ظاهرها، ومن هذا المنظور كان الكلـب الـسلوقي - مجرد هيكل عظمي يسير على قدميه - كـاملًا لا ينقـصه شيء. قـام بـسعادة ولعـدة مرَّات بإصدار أصوات تشبه الصفير وأخذ يتمسح في ساق المهندس. ركض إلى السيارة ثم عاد مرَّة أخرى بسرعة البرق. أخذ يجري في دائرة. إلكترون عظمي مجنـون يبعـث على السعادة. أخذ يتقافز ويتمسَّح بباطن أصابع راحة يد المهندس المبسوطة.

فتح المهندس المعماري باب السيارة، فتـسلَّل الكلـب إلى داخلهـا، واسـتدار إلى المقعد الخلفي، وجلس عليه مُتكوِّرًا، ثم أخذ يتنفس بهدوء. بدا كأنه حزمـة حيـة من فروع الشجر. أغلق المهندس الباب. انعكست عليه صـورة المنـزل، والحديقـة، والأفـق البعيـد. إن كـل شيء يـرتبط بـالمنظور، بزاويـة الرؤيـة. أدار المهنـدس محرك السيارة، فتح جهاز الملاحة الجي بي إس، نظر في مـرآة الرؤيـة الخلفيـة، مـا زالت ذات الشعر الأحمر تقف وراء الزجـاج منحنيـة الـرأس. وضـعت فـردة مـن القرط في أذنها، لكنها ستبحث عن الأخرى طـويلًا بـلا جـدوى. ابتـسم المهنـدس، ولـوَّح لهـا مُحييًـا بـلا اهـتمام. قـال صـوت الفتـاة في جهـاز الملاحـة وكأنهـا

قد أجرت جراحة توسيع للحنجرة.. عند المنعطف التالي اتجه يمينًا. ضغط المهندس على البنزين، واتجه وفقًا لتعليمات الجهاز.

قطعت السيارة المشهد المسائي، السحب المتفرقة فوق الحقول، قطرات الماء فوق الزجاج الأمامي. مرَّ بعدة قرى، ظهرت أول أحلامه السيئة.. الضواحي ذات المنازل الأسمنتية جاهزة التركيب، هذه الظواهر الخارقة التي تظهر على الخرائط، وفي رسومات هيئة المساحة كمرض خبيث. مناطق أحادية الثقافة، تفسد فيها الرغبة في الحياة الأسرية بشكل جماعي. هذه المباني الوحشية، المدفأة بألواح الطاقة الشمسية، وغير الموجودة في مُلصقات شركات التنمية، ربَّت أفواجًا من الموظفين السذج اللذين انتزع القرض البنكي عقولهم من رؤوسهم، هؤلاء – عبيد هذه الخرسانة المفتتة، عبيد هذه المباني الجديدة الآيلة للسقوط – سينتهي بهم المطاف في سراديب الرواسب الحمضية ذات الرائحة الكريهة مثل الكمثرى المعلقة في رابطة أعناقهم.

توقَّف المهندس المعماري وهو يتنهَّد أمام مزلقان السكة الحديدية المُغلق. صوت رنين. ضوء إشارة السكة الحديدية الأحمر وصل إلى تجويف لوحة القيادة. كان يرتدي خاتمًا في بنصر يده اليمنى. أداره بضع مرَّات، ثم بسط راحته وقبضها. كانت الأخبار في الراديو تقول: "بعد حادثة الأمس هناك سؤال يطرح نفسه: هل كان هذا المشروع المبالغ في نفقاته ضروريًّا؟ يجري الآن دراسة وثائقه من قبل الخبراء.

فقد بدأت الشرطة التحقيق في هذه القضية منذ ليلة الثلاثاء عندما حدث هبوط أرضي نتيجة القيام بعملية جس للتربة في أساسات أحد المباني، مما أدى إلى إصابة شخصين. رفض مصمم المشروع الرئيسي التعليق على هذا الأمر في المناظرة التلفزيونية التي جرت بعد ظهر اليوم". مد المهندس المعماري يده إلى الزر، وأغلق الراديو. فمنذ يومين وهم يتحدثون عن أشياء تُصيبه بالتعب. كانوا يتحدثون عنه هو.

2

الـضوء التحـذيري يتحـرك في المكـان ككتلـة مـن لهـب. يُـسمع صـوت صريـر الحاجز. السرعة تغلبت على الصوت. جعلتـه يكتـسب نغمـة أخـرى. هنـاك فتـى يجلس في عربة منعزلة. وجهه شاحب. مرَّ القطار بالحاجز، وانطلق بعيدًا. المناظر الطبيعية التي يكسوها الظلام تتحرَّك مع وهج ضوء القطـار. كـان الفتـى يُراقـب الشفق المسائي في الأفق، والذي يتموج كالوتر. تدفق هـواء بـارد إلى الـداخل عـبر النافذة المفتوحة. كـان مُحمـلًا برائحـة الطـين والحقـول، ورائحـة الجـداول التـي فاضت بمياه الأمطار المنهمرة. عاد مرَّة أخرى للنظر في كتابه. لم ينظر أمامه كثـيرًا. فهناك فتاة تجلس في مواجهته، كان عصبيًّا لأن الفتاة كانت جميلة.

سار بهم القطار ما يقرب من نصف الـساعة، قبـل أن يبـدأ في الفرملـة فجـأة، بعد لحظات توقف تمامًا. سُمع صوت زفير خراطيم الهيدروليك، وصريـر احتكـاك المعادن. ثم سادت لحظات من الصمت.

هو: نظر بعـصبية إلى الظـلام مـن خلـف الزجـاج، ثـم عـادل لينظـر في الكتاب. انعكاسات على الزجاج، ومقدمة الأحذيـة. رُكَـب؛ غـيَّر مـن وضـع جلوسـه، ثـم أخـذ يـسعل بـلا داع. حـاول أن يتأكـد مـن أنـه لم يـسعل

بصوت عالٍ جدًّا. وضع ساقًا على ساق، ثـم أعادهـا مـرَّة أخـرى. أخـيرًا فـضَّل أن يتظاهر بأنه يقرأ.

هي: جالسة في مكانها.

بعد لحظات استجمع الفتى شجاعته، وسألها:

- أتعرفين أين نحن الآن؟

ابتسمت وهي تنظر إلى ما تكتبه قائلة:

- في مكان ما بين الحقول.

آها. ثم عاد لينظر بعصبية في كتابه. كانت الفتاة تنظر إليه.

قالت الفتاة وهي تشعر بالتذمر من تظاهره بالقراءة:

- الهندسة المعمارية؟

فقال الفتى وهو يدير وجهه إلى الناحية الأخرى كأن هناك حصانًا يجذبه:

- ماذا؟

وكأنه بسؤاله هذا يُريد الحصول على قليل من الوقت للتفكير.

فأضافت على الرغم من أنها تعلم جيدًا أن الفتى سمعها:

- هل أنت مهتم بالهندسة المعمارية؟

ترك الكتاب:

- حسنًا.. لقد أدخلوني الجامعة، وغدًا سأذهب للتسجيل للدراسة.

- لماذا تُريد أن تدرس هذا؟

رَمَشَ الفتي بارتباك.

- ماذا تقولين؟

ثم نظر مرَّة أخرى جانبًا.

أخذت الفتاة بصبر توضح له سؤالها:

- ما الذي يدفعك إلى دراسة الهندسة المعمارية؟

- أنا...

لم يتمكن من الإجابة عن السؤال.

- أنت؟

- لا...

ثم أضاف بارتبك تام:

- المكان.

- المكان؟

- لا أعرف، لكن ببساطة ما يشدني إليها هو المكان.

نظرت إليه الفتاة نظرة مُتفحصة، ثم سألته:

- المكان.. كالغرف، مثلًا؟

- ربما. بشكل عام. الغُرف وما خارجها. لا أعرف.

- آها.

هزَّ الفتى رأسه بارتباك، ثم رفع الكتاب تلقائيًا، لكنه عاد وتركه.

- أيضًا الزمان. فكل شيء متعلق بالزمان.

- العمارة؟

- الأمر يتعلق.. بخلق المكان الذي يقضي فيه الناس بعض الوقت.

أومأت الفتاة برأسها مفكرة:

- همم.

- لقد قال شخص ما ذات مرَّة أن عليهم العودة إلى تطبيق عقوبة الإعدام على المهندسين المعماريين.

- عندما يُفسدون تصميم المنزل؟

- بالضبط، فهناك أشخاص سيضطرون للعيش به.

ابتسمت الفتاة، ونظرت إلى الظلام من خلف النافذة. بعدها أخرجت قلمًا، وبسرعة كتبت شيئًا على قطعة من الورق، ووضعتها على الطاولة. نظر الفتى بعصبية في كتابه، لكنه لم يستطع القراءة. استرجع في داخله كل الحديث السابق، وقيَّمه بأنه كان حديثًا في غاية البشاعة. شعر بالسخط الشديد على نفسه. فهو لن يكون طبيعيًّا أبدًا. لن يجد أبدًا في نفسه هذه القوة. هذه البساطة التي يتمتع بها الآخرون وتثير إعجابه بهم.

في محطة القطار الرئيسية ودعته الفتاة، ونزلت من القطار مع أول من نزلوا. أنزل الفتى حقيبة ظهره من فوق الرف، أخذ الكتاب من على الطاولة لكي يضعه في الحقيبة، لكنه لاحظ فجأة قطعة الورقة. على أحد جانبيها صورة – نص عن الأنثروبولوجيا – بالتأكيد كانت هذه الفتاة تدرس في إحدى الجامعات هنا – وعلى الناحية الأخرى من الورقة وجد رقم تليفون. نظر إليه الفتى مُرتبكًا. انحنى من النافذة، لكنه لم يرَ الفتاة على الرصيف. نظر من جديد إلى قطعة الورق، ابتسم، ووضعها في الكتاب.

عندما غادر المحطة، كان الليل قد أرخى سدوله تمامًا. استغرق الأمر كثيرًا من الوقت حتى تجاوز الحشد البشري. قام عند شباك التذاكر بتوزيع بعض النقود الفكة على ثلاثة من الأولاد كانوا يتجولون في المكان لأنهم في حاجة لبعض الكرونات لاستكمال ثمن التذكرة. وقف أسفل الضوء الأصفر لأحد مصابيح الشارع، وأخذ يدرس الخريطة. في المدينة الجديدة استأجر غرفة في شقة طلابية مشتركة. لكن، وفقًا للعقد فإن المستأجر السابق سيُخلي هذه الغرفة في غضون أيام قليلة. وحتى هذا الوقت سيضطر للإقامة عند أحد معارفه - زميل المستقبل الذي تعرف عليه خلال امتحانات القبول بالجامعة، وتبادلا الحديث لفترة وجيزة. ثم تبادلا عددًا من الرسائل.

من العجيب أنه وصل إلى المنزل بسهولة. كان يقع في شارع رئيسي مُزدحم، مُحاط من جانبيه بأشجار حضرية قصيرة، تخرج من حُفر محاطة بحواجز معدنية. هناك طوابير من السيارات تقف في التقاطع أمام إشارات المرور، بالقرب منها يتحرك المارَّة، والعداؤون، وامرأة تحمل كلبًا من فصيلة "شيواوا" تحت إبطها. كل هذا مر به، كل هذا رآه الفتى، فزاد توتره أكثر فأكثر. دقَّ الجرس مرَّة أخرى لفترة طويلة. أخرج تليفونه. الرقم غير مُتاح. تراجع للخلف، نظر إلى أعلى إلى النوافذ المُظلمة. نظر في محفظته. معه قليل من الفكة. دقَّ الجرس مرَّة أخرى. لا شيء.

3

فرمل المهندس المعـماري عنـد التقـاطع، وانتظـر تحـول إشـارة المـرور إلى اللـون الأخضر. انتصب الكلب السلوقي على المقعد الخلفي، وعوى مـرَّتين في هـدوء، وداس بإحدى قدميه على القدم الأخرى على طريقة القطط. مد المهنـدس يـده، وحـكَ بهـا خلف أذن الكلب. هدَّأ هذا من روع الكب، وجعله يعود ليتمـدد مـن جديـد، دفـع أنفه تحت مخلبه، وأخذ يزفر لفترة طويلة. رأى المهندس عبر الزجاج هذا الفتى الذي يقف أمام المنزل، ويدق الجرس بلا جدوى. كان وجهه مألوفًا له. كأنه رآه في مكان ما منذ زمن بعيد، لكنه لم يستطع أن يتذكر أين. بعدها تحولت إشارة المـرور إلى اللـون الأخضر. ضغط المهندس على البنزين، ونسي هذا الفتى على الفور.

توقف في موقع للبناء. كانت أرض الموقـع مخططـة بآثـار إطـارات الـشاحنات والمُعدات الثقيلة. أغلق الباب بقوة. انطلق ممسكًا الكلب السلوقي من حبلـه في اتجاه الفوضى. التصق الكلب به. ذيله ممتد بين ساقيه، منزعجًا من ضجيج الآلات العاملة في الموقع. كان هذا الضجيج المستمر للمعـدات الثقيلـة يُغطـي عـلى كـل شيء. أعمدة كهرباء عليها مـصابيح الهـالوجين المتوهجـة، وتحـوم حولهـا سـحابة هائلة من الحـشرات. لا يُمكـن للـشخص أن يتحـرك في الموقـع إلا إذا كـان يرتـدي

خوذة برتقالية وسُترة واقية؛ كان يتحدث عن شيء ما، لكن بسبب الضوضاء لم تُسمع كلمة واحدة من حديثه. كل شيء يتجه منحدرًا عبر أنبوب ضخم إلى أساسات المبنى. في كل مكان تنتشر رائحة الخرسانة الجديدة. هيكل دعم مصنوع من أسياخ حديدية، حزم من الكابلات على الجدران، طين موحل. جاري العمل في الحفرة.

في جانب منها تجري عملية مسح أثري. ينتشر الباحثون عن العظام، وعن بقايا الأواني الفخارية في المكان الممتلئ بالملصقات الورقية. لديهم أيام قليلة لإتمام العمل، إنهم يسابقون الزمن. وإلا سيقومون بصب الخرسانة على اكتشافاتهم. حركات محمومة ومُتشنجة لأشخاص يشبهون الهياكل العظمية بأعين مُشتتة، أعمدتهم الفقرية مقوسة ومنبعجة، يظهر بروز فقراتهم من أسفل سُتراتهم الممزقة. هم أنفسهم يشبهون الاكتشافات الأثرية. يتحسَّسون الطين وهم ممسكون بفرشاة في أيديهم المرتجفة. تخيَّل المهندس هذا الصوت الذي يُفسد البصر. خشخشة ضعيفة، صراخ قرنية العين التي لم تتمكن طوال اليوم من العثور على الأشياء المغمورة في باطن الأرض. عند الغسق تتم إضاءة الكشافات الضخمة، ويستمر العمل لوقت طويل من الليل.

وصل إلى بناية غريبة مُصممة من حاويات معدنية مُلتصقة ببعضها. ربط الكلب بالحاجز، وصعد السُّلَّم المعدني وصولًا إلى الباب. أخذ الكلب يعوي فقد كان مُرتبكًا وخائفًا من هذه الضوضاء المحيطة. هزَّ رأسه وأخذ

يتحرك من ناحية إلى أخرى. دخل المهندس المعماري إلى الداخل، وصفع الباب خلفه، فاختفت الضوضاء. فقط كانت الجدران المعدنية تطن عندما تمر شاحنة بالقرب منها. ضوء مصابيح الفلورسنت الحاد. كل شيء أبيض. على الحائط دُمية متسخة لامرأة ذات نهدين صناعيين هائلين تضع يديها على فرجها. هناك عدد من الرجال يرتدون ملابس وخوذات العمل برتقالية اللون. يجلسون حول طاولة من خشب "الفورمايكا". يقبضون على الأكواب البلاستيكية، ولا يتحركون. يتابعون في صمت التلفزيون الموجود في زاوية الغرفة. نظر المهندس إلى الشاشة. رأى نفسه.. أنه يجلس في ستوديو التلفزيون، ويتحدث. تسجيل للمناظرة التلفزيونية التي أجروها معه بعد الظهر. في مواجهته تجلس المرأة ذات الشعر الأحمر مرتدية ملابسً رسمية. كانت ترتدي أيضًا قرطها الأحمر.

كانت ذات الشعر الأحمر تُهاجمه بلا هوادة قائلة: "كان من المقرر أن تقوموا بعملية تجديد، ولكنكم الآن تُعيدون بناء المبنى بأكمله من جديد. ووفقًا لرأي الخبراء فإن مشروعكم لا يلتزم مُطلقًا بالشكل المعماري للمنطقة المحيطة".

قال المهندس بتأنٍّ وبصوت منخفض: "إن كل بناء ذي جودة عالية يتعرض لضغوط من نوع ما، فإمَّا أن يؤدي هذا إلى إقامة حوار خبيث بينه وبين المباني المحيطة، أو إلى اندلاع حرب بينهم. كلا الخيارين يمكن أن ينجح في ظل ظروف معينة. وأنا اخترت الخيار الثاني".

قالت وقد تملكها الغضب تمامًا: "لا يُمكنك أن تتخلص من المشكلة بهذه البساطة. إن الآراء حول هذه المسألة تتضارب تمامًا". أخذ المهندس المعماري يتفحصها باهتمام. لم يكن في هذا اللحظة يتخيلها وهي تُطأطئ رأسها أثناء المُضاجعة، لم يكن يعرف شيئًا عن مجموعة الوحمات التي تُخفيها تحت بلوزتها، لم يكن يعرف شيئًا عن خارطة جسدها. تشاجرا معًا بعد المناظرة.

في النهاية قال بهدوء: "إن التصميم طُرح للمناقصة، واجتازها، وأي شكاوى مماثلة قد أصبحت الآن بلا أهمية تمامًا".

قالت له: "وكيف تنظر إلى عريضة الاحتجاج التي وقَّعها الآلاف من الناس. فمشروعك كما يراه كثيرون سيضر بشكل واضح بالصورة الجمالية للمدينة".

نظر المهندس إلى ذات الشعر الأحمر، وقال: "إن كل المباني المحيطة الموجودة على مساحة واسعة هي مجرد بنايات متكررة كل منها يُشبه الآخر. لا يحمل أي منها فكرة مؤثرة. ليس لأي واحد منها قيمة حقيقية. فليس هناك ما يُمكن إفساده".

قالت له: "لكن الآن، وبعد حادثة الأمس يجب أن نضيف إلى ذلك عوامل الأمن والسلامة. كيف يُمكن أن يحدث شيء من هذا القبيل في مثل هذا البناية الضخمة؟".

قال المهندس ببرود: "هذا سؤال يوجه لمهندس الإنشاءات".

قالت له: "أنت بالتأكيد تعرف كل بيانات المشروع".

أجابها: "لن تقع أي حوادث أخرى".

سألته:"كيف يمكنك أن تكون متأكدًا إلى هذه الدرجة؟ إن هذه هي المشكلة الثانية...".

قال ببطء وبصعوبة كأن كل كلمة تزن طنًّا: "في الحالتين كان السبب هو إخفاق العنصر البشري".

قالت له: "إن مشاريعك الأخيرة يُصاحبها جدل كبير...".

أجابها: "لا، يُصاحبها عدم فهم تام. الناس لا يفهمون العامل الشخصي الذي تتضمنه أي عمارة عالية الجودة، إنهم ينظرون إلى هذه المباني بلا مشاعر تمامًا".

سألته: "هل يُمكن أن تكون أكثر تحديدًا؟".

تنهَّد المهندس طويلًا.

4

غيَّرت النادلة القناة إلى قناة الموسيقى. اختفت المذيعة ذات الشعر الأحمر، وكذلك المهندس المعماري. جلس الفتى بمفرده في المقهى الخالي. أمامه كوب من القهوة الباردة. شعر بنوع غريب وعذب من الشك. جلس هنا وهو يشعر بالضياع في هذه المدينة التي لا يعرفها. في الصباح سيذهب لأول مرَّة إلى مدرسته الجديدة، شعر أن حياته تسير في اتجاه مجهول تمامًا. في مكان ما من معدته وُلدت موجة ساخنة غريبة، تحركت إلى أعلى حتى وصلت إلى أنفه، اضطرته لأن يأخذ نفسًا عميقًا. كانت هذه فورة قوية لشيء جديد، رهبة من دون هدف واضح.

إن زميله الذي من المفترض أن يقيم معه لم يرد بعد على التليفون. الوقت في الساعة فوق البار يُشير إلى العاشرة. أخرج من كتاب العمارة قطعة الورق التي تركتها الفتاة في القطار. من جديد قرأ النص الموجود على الجانب الآخر منها. صورة سيئة من كتاب ما.

"ثَمَّتْ شجرة في بستان مقدس، يطوف حولها بلا توقف شخص مُرعب. ملك الغابة وحده. الكاهن والقاتل في الوقت نفسه. رجل مُسن ذو عينين واسعتين، تشردان من قلة النوم. يقبض بيده على سيف

بتَّار. ينتظر عدوه الذي لم يأتِ منذ سنوات، لكنه يقترب، كـان متأكـدًا مـن ذلـك، لقد استقبل طريقه في مكان ما خلف حدود الغابة، خلـف حـدود الظـلام. مـرَّت سنوات، والقاتل الذي ينتظر قاتله قد انحنى ظهره بفعل ثقل الشيخوخة وجـلال المنصب. إن خليفته يقترب ليحمل عنه هذا العبء، ويـضعه عـلى ظهـره. عنـدما يحدث هذا، ستزهر هذه الغابة الذابلة، وتنمو زهور حمراء يانعة، مُشبعة بالـدم الطازج لهذا الحاكم الجديد".

قَلَّب الفتـى الورقـة، واتـصل بـرقم التليفـون المكتـوب عـلى الناحيـة الأخرى.

5

ارتدى المهندس الخوذة البلاستيكية، وانطلق إلى موقع البناء، وأثناء سيره أخـذ يطرق بلُطف على بعـض الأمـاكن بأظـافره، أو بظهـر أصـابعه. مـن حولـه توجـد المعدات.. الكشافات الفلورسنت، وسحابة من البخار تخـرج مـع أنفاسـه وتُحـيط بشفتيه المتشققتين. هناك شاحنة محملة بالطين تخرج مـن مكـان مـا مـن عمـق النفق. وصل إلى المكان الذي كان فيـه عـدد مـن العـمال يـصبون الخرسـانة عـلى هيكل من الأسياخ الحديدية. تحدَّث عن شيء ما مع رئيس الوردية. نظر إلى بعض الأوراق، وأخذ يهزُّ رأسه.

في الحاجز الذي ربط إليه الكلب كان يوجد فقط طوق فارغ. نظر حوله، وأخـذ يُصفر طويلًا. كان من الصعب سماع صفارته نظرًا لهذه الضوضاء المحيطـة. ضـجيج المُحركات، والمكابس، وصرير الحفارات. فوق كل هذا ظهرت أذرع الرافعـات، التـي تظهر على خلفية السماء سوداء ومتعرجة، وتُشبه بعض الرسومات البيانية الغريبة.

وصــل المهنــدس إلى طــرف الموقــع، توجــد خلفــه حديقــة صــغيرة، وبعـدها بنايـة عاديـة. وضـع أصـابعه مـرَّة أخـرى عـلى شـفتيه، وأخـذ يُصفِّر. وقـف وانتظـر طـويلًا. لم يحـدث شيء. مـر بـه عـدَّاء يرتـدي بذلـة

مطاطية، وبقيت بعده رائحة أنفاسه. رائحة أنفاس حيوان مُصفاة عبر رئتين ساخنتين. اختفى الكلب. بحث المهندس عنه ما يقرب من الساعة، وفي النهاية قرر عندما أصابه التعب أنه من الأفضل أن يتصل في الصباح بملاجئ الكلاب في المناطق المحيطة.

عندما أوقف السيارة أمام المنزل كانت الساعة قد أصبحت الحادية عشرة والنصف. أطفأ الأنوار، وأغلق الباب. العمارة البدائية، مبنى مُعتم من مادة تُشبه حجر الأردواز. وقف للحظات في هواء الليل البارد، وأخذ ينظر إلى المبني. كان هشًّا، ضعيفًا، كأن هيكل المنزل الداخلي قد طفا على سطح المبنى. كأن المنزل يتحدث عن بعض الأضرار التي لحقت به. مثل تحطم بعض الأبواب أو النوافذ. عندما أنهى هذا النموذج، فجأة انتابته رغبة قوية – على الرغم من أنه كان سعيدًا بهذا المشروع – أن يسحقه في كفِّه. هذه الرغبة الغريبة تتمركز حول مزهريات الكريستال، وجماجم الأطفال.

حديقة هائلة، وعلى مسافة من أشجار الزينة المنزلية توجد شجيرات المانوليا، والتي تم تغليفها بأكياس بلاستيكية بسبب العاصفة. وصل المهندس إلى الباب، فتحه، ودخل إلى المنزل. هناك ضوء خافت في الرِّدهة. سار عبر المنزل المظلم، كانت الغرف غير مُنظمة بشكل غريب، تمامًا مثل واجهة المنزل هشة وضعيفة. كثير من الزوايا المظلمة، سلالم في ناحيتين من المنزل تؤدي إلى الطابق

العلوي. في منتصف غرفة المعيشة يقف عمود كبير مُربـع - حـوض أسـماك كبـير مُضاء بضوء النيون الأزرق. يتحرك في الماء قنديل بحر وحيد هائل الحجم. تسجيل حي لانفجار نووي. جسم ضخم شفاف. تنقـبض قبعتـه الهلاميـة بـشكل منـتظم، حركات سحب ناعمة. ذهب المهندس إلى الطاولة. كان عليها ثلاثة أكـواب مـا زال بها بعض القهوة. رفع واحد منها، وأخذ يشمه. ما زال دافئًا.

صعد السُلَّم إلى الطابق العلوي. أراد أن يُمـسك بمقـبض البـاب، ولكنـه توقـف فجأة. سمع صوتًا يأتي من مكان ما في داخل المنزل. ضغط على المقبض بحذر، مـرَّ بحجرتين مُظلمتين، تزايدت الأصوات، لكنه لم يفهمها بعد. توقف عند بـاب غرفـة مكتبه المفتوح جزئيًّا. نظر من خلال شريط من الـضوء إلى الـداخل. كانـت هنـاك امرأة طويلة ترتدي فستانًا أسودَ تقف عند الطاولة. جميلة، لكن جسدها به كثير من العظام. ففي كل مكان تبرز العظـام، حتـى عظـام الخـدين والترقـوة. كـأنهما حاجبان عملاقان فوق نهديها، العظام البـارزة للكتفـين والمـرفقين، شـوكة العمـود الفقري، الذقن، الحوض الذي يبدو كزهرة أوركيد ضخمة ومتحجـرة. أحـب هـذه التركيبة الغريبة. لم يُزعجه مطلقًا أن يرى كل أعضائها وهـي تتجمـع مـرَّة أخـرى، عندما أراحت رأسها برشاقة على عظمة مرفقها البالغ طولها نـصف مـتر، وأخـذت ترتشف من الكوب الزجاجي، وتُطلق الدخان من جمجمتها.

هناك رجلان يقفان أمام المرأة، يرتدي كل منهما بذلة سوداء، بديا جادَّين. كانا مُتشابهين جدًّا، أمَّا تركيبتهما الجسدية فهي غير مثيرة للاهتمام مُطلقًا.

سألها أحد الرجلين الذي يرتدي رابطة عنق رعاة البقر، ووجهه محلوق لدرجة أن هناك بُقعًا حمراء تظهر على رقبته:

- متى سيعود زوجك؟

أجابت المرأة التي كان طولها يفوق طول الرجلين بمقدار رأس كامل تقريبًا:

- لا أعرف، فأنا لم أره منذ أربعة عشر يومًا.

قال الشخص الثاني الذي لم يكن لديه أي بُقع في ذقنه، وكان وجهه مُملًا لدرجة تجعل الإنسان ينساه بمجرد أن يدير بصره عنه:

- هل يمكن أن أُلقي نظرة على هذا؟

نسي ملامحه فورًا. كل ما لديه هو شفته السُّفلى. كان يعضها من حين لآخر. لا شيء غير عادي، لكن لو كان وجهه هذا في الصحراء لاعتبروه واحة غنَّاء.

قالت له:

- تفضَّل.

وأشارت له إشارة غير محددة صادرة عن ساعد يبلغ نصف المتر، يرتبط بـذراع تبلغ نصف المتر.

انحنى الرجلان على الطاولة، وسُمع للحظات صوت خشخـشة وتـصفح الأوراق. كـأن شخـصًا مـا يعبـث بـأوراق الـشجر في الحديقـة. يبـدو مـن طريقتهما في العبث بالأوراق أنهما يتمتعان بنوع من الخبرة في هذا الأمـر، إنها المهارة المكتبيـة، إنهـا براعـة الحـشرات، التـي تـستقر بعـد سـنوات في أصـابع مـوظفي شركـات الـصرافة، وفي أصـابع مـوظفي البنـوك، ورجـال الجمارك، وموظفي الجوازات. كانا يتحركـان حـول الطاولـة بـسرعة كـأنهما اثنان من حشرة فرس النبي.

قال الرجل ذو البقع:

- ما هذه الرسومات؟

- أرني هذا.

أمسكت المرأة بالورق الشفاف، وقالت:

- آها، إنه قصر "كينسكي".

- لماذا يحتفظ به هنا؟

- ربما هو مهتم بهذه التصميمات.

فقال صاحب الشِّفة السُّفلية متمتمًا ومفكرًا:

- همم.. لكن لماذا قصر "كينسكي" بالذات، إنه مبنى قديم جدًّا.

- عند بنائه حدثت مشاكل مستمرة في الأجزاء الثابتة من المبنى، ولكنهم تمكنوا في النهاية من التغلب عليها. ربما هذا هو السبب.

أخذ الرجلان يُحدِّقان في التصميم، بينما جلست المرأة، ووضعت ساقًا على ساق، كأنهما رأسا حصانين عاشقين في صور البنات، لكن لا يوجد حصان في العالم رأسه نحيف هكذا، الأفضل أن نقول وضعت غصنًا على غصن. كغصنين عاشقين.

سألها صاحب البُقع بجدية:

- كيف تغلبوا عليها؟

- تم دفن المهندس المعماري الرئيسي في أساسات المبنى، بعدها توقفت المشاكل.

نظر الرجلان إلى بعضهما نظرة ذات مغزى.

- سنضطر إلى أن نأخذ هذا معنا.

ضـمت المـرأة كتفيهـا. أخـذت أصـابع الـرِّجُلينِ تجـري عـلى الأوراق كأرجـل العنكبوت، وسُمع صوت الأوراق وهي تخشخش.

بعد لحظات قال الرجل الثاني:

- وما هذا؟

ثم عضَ شفته مرَّتين. كأن هذه الحركة تُساعده على التفكير. عضَ شـفته كأنـه يضغط على بدَّال النول اليدوي.

- هذه تصميمات الطابق الأرضي من هذا المبنى.

توقف النول اليدوي، وعادت الصحراء القاحلة لتأخذ مكانها على وجه الرجل.

- مهلًا.. أتقصدين أن هذا المنزل من تصميم زوجكِ؟

أخذ الرجلان الآن يتفحصان الغرفة باهتمام وبنوع من الريبة.

- نعم.

أومأت المرأة برأسها، وببرود أشعلت سيجارة.

قال الرجل ذو البُقع، وهو يتفحص الجدران ببصره:

- إن هذا مبنى حديث نسبيًّا.

قالت المرأة، وقد نفخت دخان سيجارتها لنصف متر في الهواء:

- إنه لم يكتمل بعد. ما زالت تنقصه بعض التفاصيل. بعض الزخارف الصغيرة.

صمتت.

وبعد قليل أضافت:

- في الواقع هو ليس منزلًا.

قال الرجع ذو البُقع:

- عذرًا؟

عادت المرأة لتأخذ نفسًا طويلًا من سيجارتها.

- إنه لم ينظر إليه كمنزل.. بل كمفكرة، كدفتر لذكرياته.

- ماذا تقصدين بدفتر لذكرياته؟

- هكذا كما أقول لك. لقد صممه ليكون ذكرى لحياته... ذكرى لنفسه.

بُقع.

شفة.

- هل يُمكن أن تكوني أكثر تحديدًا.

- بالطبع.

نهضت المرأة، فتحت الباب، أضاءت المصباح، وأومأت للرجلين ليتبعاها.

- كل الوحدات والمقاييس مستوحاة من وظائف أعضائه وتركيبة جسده.

أخذت تُشير بيدها كأنها مُرشدة سياحية في إحدى القلاع التاريخية:

- كلها مشتقة من ارتفاع قامته، ومن طول عظامه، ومن ضغط دمه، وهكذا. فمساحة كل الغرف هي دائمًا حاصل ضرب حجم رئتيه. هو يبدأ دائمًا من الأنفاس.

نظرت البقع إلى الشفة نظرة ذات مغزى. سار الرجلان في أروقة المبنى منحنيين كأن المبنى صار فجأة يُمثِّل خطرًا عليهما.

أخذت المرأة تصف المكان مستخدمة ذراعها:

- إن المنزل كله مُصمم على فكرة الدورة الدموية. يُمكن أن تنتقل بـين الغـرف تدريجيًّا كما ينتقل في الجسم الدم المؤكسد، وغير المؤكسد.

هبطوا إلى الطابق الأرضي من المنزل. رأى الرجلان قنديل البحر الذي ينـبض في حوض الأسماك.

فقال الرجل صاحب الشِّفة مندهشًا:

- هذا...

أومأت المرأة قائلة:

- هذا هو القلب.

أخذ الرجلان يُحدقان في قنديل البحر الهائـل. في هـذه اللحظـة نظـرت المـرأة بشكل غير ملحوظ إلى السُلَّم المُؤدِّي إلى الطابق العلـوي.. كـان بـاب غرفـة النـوم يُغلق بهدوء.

قالت للرجلين المصدومين:

- كل هذه الأشياء هي في الوقت نفسه مجموعة من ذكرياته.

نظر الرجلان إليهـا بنـوع مـن الـبلادة التـي غرسـتها في كـل حركـة مـن حركاتهما.

قالت موضحة:

- عندما كان في الثانية عشرة من عُمره لسعه قنديل البحر، ومنذ هذا الوقت وهو يخاف منها.

تجولوا في الطابق الأرضي. كانت الغُرف تُضاء تدريجيًّا.

- أو هنا. كل الأثاث في هذه الغرفة صُنع من خشب الشجرة التي غرسها والده عند ولادته... أمَّا النموذج الموجود على ورق الحائط فهو رسم بياني للحركات التي كانت تقوم بها والدته وهي تُمارس الخياطة. كانت في شبابها خياطة، وكانت قادرة على تفصيل الملابس المطرزة البالغة التعقيد.

أخذ الرجلان يفحصان الجدران، من حين لآخر كانا يلمسان بعض الأشياء بحرص، لكنهما على الفور يسحبان أيديهما بعيدًا، كأنهما فعلا شيئًا غير لائق، يعودان سريعًا إلى أمان بُقعهما، وإلى أمان شفاههما.

- لا يوجد هنا شيء واحد، أو قطعة أثاث واحدة لا تُسجل شيئًا من حياته بأي شكل من الأشكال.

- وأنتِ؟

كانت المرأة في هذه اللحظة تقف عند المكتبة، وتتفقد فردة قرط من الياقوت مُعلقة بخطاف في غطاء المصباح. التفتت، ومـض في وجههـا شيء مـا غـير متوقـع، نفحة من حنين لا يُحتمل، خفضت عينيها، وابتسمت قليلًا.

ومن دون أن يشعر الرجلان، كان الجميـع يقفـون في مـدخل المنـزل. قـادتهما المرأة بخطوات هادئة، وصارمة في الوقت نفسه إلى باب الخروج.

قال صاحب الشِّفة:

- غدًا سيستدعونه.

لم تقل المرأة شيئًا، فقط فتحت للرجلين باب الخروج. وربما هذا هـو مـا دفـع صاحب البُقع أن يُضيف:

- سيسحبون منه المشروع كله...

ابتسمت المرأة ابتسامة خفيفة، وقالت:

- سيعود. سترون. إنه دائمًا يفعل.

6

سار الفتى والفتاة معًا عبر المدينة. أشرقت الشمس، كانت الشوارع فارغة وهادئة. سارا عبر المباني القديمة، والطرق المتعرجة، عبر سيقان النباتات الناعمة. هبطا بمُحاذاة أسوار المدينة المُتداعية. توقَّفا، فجأة وبخجل خفيف ثم بجرأة كبيرة قام الفتى بمعانقة الفتاة بشكل أدهشه هو شخصيًّا. ضمها إليه بقوة. كانت القُبلة طويلة لدرجة أن الشمس قد أشرقت تمامًا. مرَّ بالقرب منهما شخص ما، لا تزال عيناه نائمتين، وفي فمه سيجارة. فضَّلا الابتعاد قليلًا، توغلا أكثر في الممر، تقدم الفتى خطوة على الفتاة، وتوقف أمامها، دفعها بقوة إلى الجدار، حتى تنهَّدت تنهيدة ضعيفة، وقبَّلها مرَّة أخرى. شعرا في ذلك بنشوة وشهوة لم يعهدها أي منهما من قبل.

بيدين مرتعشتين توغَّلا تحت طبقة أخرى من ملابسهما. غرست الفتاة أظافرها في ظهره من تحت قميصه، وأخذت تجذبها بمُحاذاة عموده الفقري. كان يشعر بهذه الجروح الغائرة تنبض في ظهره. كان يشعر بأنه على قيد الحياة مع كل حركة أخرى منها، وأنه مع كل لمسة من شفتيها يُشحن بطاقة داخلية مجهولة تنتشر من رأسه إلى أطراف أصابعه، بدأت تسري في جسده كالتيار الكهربائي. قامت

الفتاة – والنشوة تملأ عينيها – بعضّه فجأة في شفته حتى صرخ من الألم، تذوق كلاهما طعم الدم المُشبع بالحديد. كانت تُقبله قُبلات سريعة وعنيفة كأنها تضربه بها. كأنها تختنق، وكأن هناك أوكسجينًا مثلجًا طازجًا يتدفق منه، يتدفق من تشققات شفته.

بعد نصف ساعة بدآ – وهما ما زالا يشعران بسخونة جسديهما في غلق الأزرار المختلفة، والسحَّابات، والأبازيم، وفرد الملابس المُجعدة، ثم سارا بيدين متشابكتين لاستقبال يوم جديد تملؤه أصوات الطيور. جال بخاطر الفتى، وقد تملكه إحساس لا يُوصف، بأن هناك شيئًا ما قد انكسر، ولن يعود أبدًا إلى سابق عهده.

مرَّا بالمبنى القديم لقصر "كينسكي"، لكن لم يلحظ أي منهما الكلب السلوقي الذي ينام مُتكوِّرًا بلا طوق عند البوَّابة الرئيسية. رفع الكلب رأسه كأنه يستنشق الهواء. نهض، وانتفض، وتثاءب. ثم عَبَرَ الشارع ببطء في الاتجاه الذي جاء منه الفتى والفتاة منذ قليل. كان يخطو على إحدى قدميه بصعوبة، لكنه كان واثقًا من وجهته.

نمو البلور



بدأ هذا بشيء تافه. بحبة صغيرة. ربما تكون واحـدة مـن حبـوب اللقـاح، ذرَّة من تُراب، رماد انفجار بركاني، حبات ناعمة من الرمل حملتها تيارات الهواء أثنـاء عاصفة رملية. كل يوم تحترق في الغلاف الجوي آلاف النيـازك، وربمـا كانـت هـذه شظية مجهرية ناتجة عن احتراق واحد منها. وربما هي شظية صغيرة من كويكب. بقايا حَجَر جاء من الطرف الآخر للكون. جزيئـات مـن المـاء ترسـبت عـلى سـطح الحبة عند نقطة تجمُّد الأشياء على ارتفاع معـين، تُغطيهـا سريعًـا طبقـات الـثلج، فيتكون جنين البلور، ماسة غير مرئية من الماء، تنمو سريعًا، يثقل وزنها، وتبـدأ في الانخفاض. لديها ستة أضلاع مُتساوية، كاملة الأوصاف ولـيس لهـا مثيـل. فكـما لم يُعثر أبدًا في العالم على بلورتين متماثلتين من الثلج، فهذه أيضًا فريدة مـن نوعهـا، إنها تسقط من خلال هكتولترات الهواء، من خلال العمق السماوي الـلا مُتنـاهي، ولكنها في النهاية ستستقر حتمًا في مكان محـدد.. سـيعلق أحـد أطرافهـا الثلجيـة المُدببة بين اثنين من خيوط كُم قميص "آنَّا".

أخذت تنظر مُندهشة إلى بلورة الثلج - شـعرت بالـذهول لمجـرد تخيلهـا أنـه في مكان ما بداخل هذه الرقيقة تُوجد هذه الحبة الصغيرة، هذا الحَجَر الـصغير، الـذي ربما يكون هو آخر ما تبقَّى من الكوكب الكائن على الطرف الآخـر مـن الكـون، وأن بلورة الثلج هذه قد انتقلت إليها في شكل مظلة صغيرة هشة. لقد حكى والدها لهـا عن ذلك في الماضي أن الثلج، أو رقائق الثلج هي معادن صغيرة. هي بلـورات مائيـة

تحمل إلينا بقايا الكون. إن "آنَّا" تتذكَّر والدها كثيرًا. تذكَّرته الآن عندما رأت بلورة الثلج على كُمِّها، وبدا لها أنها تعرف وزنها. ذابت البلورة سريعًا لأننا كنا في نهاية الصيف – ولهذا كان حضورها هو الأكثر خصوصية. بعناية تناولتها "آنَّا" بفمها، وتركتها تذوب على لسانها، ابتلعتها ومعها البقية المُتبقية من الكويكب، وابتسمت ابتسامة خفيفة، شعرت للحظات أنها مربوطة بخيط واحد مع الكون كله.

⊙⊙⊙

قال "أوندرشي" عندما حدثته "آنَّا" عن بلورة الثلج:

- على هذا الارتفاع يُمكن أن يحدث هذا.

وأشار إلى المكان المحيط به. في المكان المحيط توجد مُرتفعات وجبال ضخمة. لقد سافرا إلى الجبال. كانا في حاجة إلى الاستجمام بعيدًا عن المدينة، بعيدًا عن كل الألاعيب الاجتماعية المُرهقة، وعلى الرغم من أنهما يلهثان من التعب، فإنهما صعدا عبر طريق ضيق إلى مكان ما فوق القمَّة التي تربط الجبلين، وهما يشعران بالسعادة من فرط الحركة. هناك خطوط من السحب تتحرَّك بصعوبة فوق القمَّة. توجد أسفلهم أخاديد عميقة، وعندما انزلق حجر صغير من تحت أقدامهما، سقط مُدوِّيًا إلى عمق كبير، وأحدث ضجيجًا وكأن كتلة صخرية بأكملها قد تحطَّمت.

كانت "آنَّا" تنظر إلى ظهر "أوندرشي" المُتصبِّب عَرَقًا، كانت تعرف كل فقرة من فقراته، وكل عضلة، بل يُمكنها أن تُحدد، وهي مُغلقة العينين أماكن بُقع النمش الكبيرة المنتشرة بمحاذاة عموده الفقري. كانت تعرف خارطة "أوندرشي" كلها معرفة جيدة للغاية. فلقد تعلمت منذ فترة أن تكون منتبهة جدًّا - لنفسها ولغيرها. لقد عاشا معًا أربع سنوات، هي في الوقت نفسه مقدار فارق العمر بينهما. لقد عثرت "آنَّا" بشكل طبيعي على رجل يصغرها سنًّا. فقد انتهت فترة السلبية، الفترة التي كانت تبحث فيها عن علاقات تُشكل شخصيتها. صارت "آنَّا" قوية، ووجدت بوعي على الشخص الذي يُمكنها الآن أن تُشكله بنفسها. وكان "أوندرشي" طالب الحقوق الذي لم يُتم دراسته، ويدرس الآن الاقتصاد للعام الثالث بلا رغبة وبنكران للذات، قابلًا للتشكيل كالعجين. لم يبدِ أي مقاومة.

لقد قاد "أوندرشي" مع "آنَّا" حرب خنادق صامتة من أجل إنجاب طفل. هو يُريد طفلًا، وهي لا تُريد. ما زالت لا تُريد. كان يُفزعها أن يكون لعلاقتهما شكل محدد، شكل ملموس، لكن الحرب اندلعت على طفل آخر. على الطفل الموجود داخل "أوندرشي". كان "أوندرشي" شخصًا حالمًا يستحيل تغييره، شخصًا إيجابيًّا قادرًا على إظهار الحماس الهائل لأي شيء. في البداية كان هذا الشيء مُشجعًا، لكن سرعان ما تبين أنه لا شيء من كل هذا له أساس راسخ، كان يستنفذ كل طاقته في الحماس نفسه، ثم ما يلبس هذا الاهتمام أن

يفتر سريعًا جدًّا. كان يتطلع لأن يُصبح فنانًا، لكنه فشل في ذلك. كان رسامًا لا يعترف به أحد، وحلم كثيرًا بأن يُصبح كاتبًا. في فترة معينة بدأ يعزف على أطباق التأمل البوذية. اشترى جهاز مزج موسيقى إلكتروني (دي جي)، استمر لعدة أسابيع بائسة يستخدمه لإصدار بعض الأصوات، ثم تركه بلا رجعة.

لقد استغل "أوندرشي" على الوجه الأكمل تنوع العالم الذي وُلِدَ به. عاش في نوبات متواصلة من الإلهام والقوى الإبداعية التي لم يستطع استغلالها، والتي تكدَّست في داخله وتعفَّنت. كان ضغطها عليه في قليل من الأحيان يقلب طبيعته الجميلة رأسًا على عقب. ففجأة يؤدي هذا الضغط إلى انفجار في جسده اللين الطيب، انفجار هذا الحماس غير المُستغل يتحوَّل في هذه اللحظة إلى غضب طفولي عارم بسبب أصغر الأشياء وأتفهها. كانت "آنَّا" تنظر إلى هذه الانفجارات بصمت، وبفهم لدوافعها. إن "أوندرشي" يُحب "آنَّا". ويُعجب بها. كان تَعامُلُه المحموم مع العالم لا يسري على شيء واحد فقط.. النساء. اكتشفت "آنَّا" ذلك مبكرًا، وكان شيئًا مُحزنًا. في الحقيقة لم يكن "أوندرشي" يبحث عن امرأة، كان يبحث بكل ما أوتي من قوَّة عن أُمه. لقد سعى سرًّا لخلقها من جديد من رفيقاته. شعرت "آنَّا" بهذا السعي، بهذا العمل السري لمشاعر "أوندرشي". ولأنها اكتشفت هذا مبكرًا فقد قاومته بكل ما أوتيت من قوة، وقد شكل هذا التوتر الغريب أساس علاقتهما. لقد نشأ في داخله – على الرغم من منافاة هذا لكل منطق -

نوع من الجاذبية القوية، جاءت إليهما بشكل مُنحنٍ ومتُعرِّج عبر قطب مغناطيسي معاكس، وجعلت كل منهما ينجذب إلى الآخر.

كانت "آنَّا" تُحب "أوندرشي" أيضًا. كانت في حاجة ماسَّة إليه، وخاصة جسديًّا. لم تلتقِ في حياتها برجل كان قادرًا على إثارتها إلى هذا الحد. في أكثر اللحظات صدقًا كانت تعترف أن أكثر ما يُثيرها فيه، مما يُعد انحطاطًا أخلاقيًّا، هو عدم نُضجه، هذا الطفل القابع في داخله، والذي كانت تكرهه كراهية شديدة، وتقود معه صراعًا لا هوادة فيه.

كانت "آنا" تُحبُ "أوندرشي" على الرغم من أنها رأته مرارًا وتكرارًا وهو يُكوّرُ جسده في وضع الجنين. رأته والزمن يعود به إلى الوراء، ويتحول مع مرور الوقت إلى صبي، ويرفض أن يأخذ أي شيء في حياته على محمل الجد، ويتحمل عواقبه. إن "أوندرشي" لم يُخاطر أبدًا. كان حماسه مجرد لعبة، وغضبه مجرد حالة مزاجية سيئة، ورغبته في الطفل، هي رغبة في نفسه. رغبة في نفسه في نسختها المُصغرة. وهذا ما كان يُخيف "آنَّا". كانت تُدرك تمامًا أن الناس غير المستقرين وغير الناضجين – طالما لم يضعوا عدم نضجهم هذا في خدمة أحد الآراء السياسية الراديكالية - هم أكثر من يستطيعون الاستمتاع بكل شيء في الحياة، إلا أن يكونوا مستعدين لتربية الأطفال. هؤلاء الأشخاص غير المكتملين، الذين يُفضلون تجاوز بعض مراحل

حياتهم، ويـرون أنفـسهم بالفعـل في دور الكبـار والمتمرسـين، الـذي يهيئـه لهـم خيالهم الطفولي. هؤلاء الناس في الغالب وبسبب يأسهم الشديد يقومـون باقتنـاء الكلاب ليستعرضوا عليها قوتهم المطلقة الرهيبة. لقد ظهر عدم نـضج "أونـدرشي" في أقوى صوره عندما أبدي رغبته في أن يكون له أطفال. لم تكن رغبته في الأطفال نابعة من حبه لمخلوق ما، أو من حبه للمـرأة التـي سـتنجب هـذا الطفـل؛ لكنـه رغب في الأطفال لتُصبح مشروعات يُحقق بهـا ذاتـه، لمرايـا مسـتسلمة يـرى فيهـا نفسه، ويرى فيها وجوده البائس غير المكتمل.

عندما أفسح ظهر "أوندرشي" الطريق لـ"آنَّا" لترى ما أمامها، رأت "بـتر" و"لينكـا" يسبقانهما. إنهما أقرب أصدقائهما إليهما في الوقت الحالي، لقد خططا معهـما لهـذه الرحلة إلى الجبال منذ وقت طويل. كان "بتر" الطبيب الشاب يقـود حـرب خنـادق مع "لينكا" حول معنى علاقتهما. لم تكن لديَّ "لينكا" مثل كل الناس (مـا عـدا "آنَّـا" التي ائتمنها "بتر" على هذا السر في إحدى المناسبات) أدنى فكرة عن ذلك. كان "بتر" و"لينكا" في غاية الذكاء، ولكـن كـل عـلى طريقتـه. كانـت "لينكـا" تُفكِّـر بجـسدها. حاسـمة وعفويـة، منطقيـة لا يُـشق لهـا غُبـار فـيما يتعلـق بالأشـياء العمليـة. تتمتع بما يُسمى العقل السليم. أحبَّت "بتر" بشكل طبيعي، وبشكل طبيعـي عانـت مـن الألم تحـت أشـواك المنطـق، والتـي غرسـها "بـتر" في حبهـا كالمنظـار الطبـي. كان "بتر" يُفكر بالطريقة نفسها في كيفية حصوله على المال؛ كطبيـب جـرَّاح. حَـوّلَ

علاقته بـ"لينكا" ببطء وبشكل دائم إلى معادلة رياضية أو إلى مصفوفة عددية، يُمكن حسابها من كلا الاتجاهين. كان غيورًا على "لينكا"، يراقب تصرفاتها، ويُعاملها بقسوة.

كان حبهما الذي استمر لسنوات طويلة، والذي كان على ما يبدو مُرهقًا ومُدمرًا لكليهما، واحدًا من أكثر الأشياء غموضًا التي صادفتها "آنّا" في حياتها. لم يجرِ أحد على الدخول إلى هذه الأحراش الكثيفة التي نمت فيها وتشعبت المعادلات الجبرية التي لا ترحم لغيرة "بتر"، وغطت على مشاعر الحب الطبيعي والصادق لديَّ "لينكا". كانت الغيرة هي مُحرك ذكاء "بتر". كانت تنقله إلى المناطق المظلمة والمتجمِّدة من الشعور، إلى أماكن ما وراء خطوط الأرض، إلى مكان لم تطؤه قدم بشرية من قبل.

كان السبب وراء غيرة "بتر" المَرَضية هي صفة لم تُدركها "لينكا" أبدًا. كانت "لينكا" تجذب الرجال إليها بشدة وبطبيعية. نوع من الغزل يقوم به الشخص كأنه تحت تأثير مخدر قوي، لا يخضع لأي نوع من السيطرة الواعية. كان جسدها يلعب دورًا في ذلك - ذكاؤها الجسدي الذي يطفو على السطح في لحظات غير متوقعة فيشكل استفزازًا كبيرًا. فمُعظم الرجال يُجنون بها تمامًا. وكان "بتر" يرى ذلك في كثير من الأحيان. كان يُحب "لينكا"، بل وربما يُحبها أكثر مما تُحبه، لكنه كان يُعبر عن حبه لها بتعذيبها. كان يهجرها

باستمرار، ويحاول بشكل متواصل أن يُجبرها على الاعتراف بشيء لا تعرفه ولا تفهمه، لكنها تتمكن بعد حديث يستمر لعشر ساعات تنساب خلاله دموعها من إقناعه بأنها تُحبه. كان يعرف أن "لينكا" على حق، وأنها لم تخنه أبدًا، لكن كانت هذه القوة التدميرية الكامنة في داخله تُجبره على مواصلة التحقيق معها.

كان بعدها يشعر بالاشمئزاز من نفسه، ثم يُصبح في حالة من البرود التام، والجمود، والصمت. لم تكن "لينكا" تفهم أوضاعه هذه، كانت عالقة بها، وتتسبب في مُعاناتها، وتحاول تحليل أسباب هذه المعاناة بلا جدوى، تحاول ذلك في البارات مع رجال متنوعين وقعوا في حبها حتى آذانهم بعد دقائق قليلة، وظلوا لأشهر طويلة يفعلون كثيرًا من الأشياء التافهة. كان "بتر" يُراقب هذا عن بعد، وتأكله الغيرة، ثم تدفعه هذه الغيرة إلى الانتقام من "لينكا" - أصبحت علاقتهما بعد هذه الرحلة الطويلة تفتر أكثر فأكثر، إلى أن تقدم بهما العمر، وفقدا البقية الباقية من شجاعتهما على تغييرها، أو إنهائها.

⊙⊙⊙

وحتى الآن ما زال "بتر" منشغلا كثيرًا في أعماقه بقسوته السابقة على "لينكا". تسلق الجبال في هدوء وبرود. عندما أرتهم "آنَّا" منذ لحظات بلورة الجليد على كُمها، وحكت لهم عن حبة الكون التي يُمكن أن تكون مختبئة في داخلها، أصبح وجه "بتر" شاحبًا. لقد

ذكَّرته هذه البلورة ببلورة أخرى، وفتحت أمامه صفحات مُحادثة قريبة جـرت في المستشفى الذي يعمل به.. محادثة جرت في حجرة الأطبَّـاء، حيـث زارتـه "لينكـا" ذات يوم بحسن نية لكي تُقصر عليه بداية وردية الليل المُملَّة.

كان حينها يقف عند النافذة، ويتأمل غـروب الـشمس. كانـت الغرفـة مظلمـة، وبها رائحة مُطهر طبي خفيفة. ظلا صامتين. وجد "بتر" عيبًا صغيرًا في زجاج النافـذة - حَجَرًا صغيرًا، حبة رمل زجاجية مُنصهرة في الزجـاج. أخـذ ينظـر إلى هـذا العيـب، وينسخه في ذاكرته على خلفية سقف المنزل المُقابـل. كانـت "لينكـا" تجلـس خلفـه، وتبكي. تبكي بهدوء شديد، كان يُسمع فقط طنين خفيـف، وأحيانًـا تلامـس شيء مـا داخل فمها، طقطقة خفيفة لغضروف الأنف عندما كانت تمسح الـدموع مـن عـلى وجهها.

قبل بضع دقائق كان قد اقترح عليها أنه ربما يكـون مـن الأفـضل إنهـاء هـذه العلاقة. وأنه لم يعد يرى سبيلًا للاستمرار بها، وطلب من "لينكا" ببرود أن تعـترف بخيانتها التي لم ترتكبها أبدًا. أخذت "لينكا" لفترة طويلـة وبـلا فائـدة توضـح لـه الأمر، ثم انفجرت في البكاء، لكن في النهاية تحجَّرت وهي تـبكي، وأخـذت تُحـدِّق فقط في مشمع الأرضية، كانت تُغطي أنفها، ومن حين لآخر يُسمع صوت طقطقة غضروف الأنف.

كان "بتر" في صمت، وبغضب مكبوت، مُقتنعًا تمامًا بأنه جادٌّ جدًّا هـذه المـرَّة. فقد بدا له فجأة أنه يعيش منذ سـنوات في علاقـة تُـشبه "النخـر" (المـوت المبكـر لخلايا الجسم الحية). في علاقة تُذكِّرك بالرغبة في الهـرش بـالطرف المبتـور، والتـي كان يسمعها من مرضاه أثناء جلسات إعادة التأهيـل. لقـد تـسلَّل إلـيهما الحـب خلسة، وبلا ألم، وتحول إلى تعايش، وإلى علاقة متوازية تجعلهما لا يلتقيان أبدًا في الواقع. كان "بتر" يردد هذا في نفسه، وهو يعرف أنه يكذب لأنهـما تـضاجعا ربمـا أكثر من المُعتاد. وقف عند النافذة، وأخذ يُتابع بـشكل خـاص طفـلًا دمـيمًا، كـان يتجول في الملعـب، ويقـوم بحركـات بلهـاء. ركَّـز ببـصره عـلى العيـب المُنـصهر في الزجاج، ووضع هذا العيب مكان رأس الطفل، وأخذ يُتابعه هنا وهناك حتى سئم من ذلك. ظل واقفًا، صامتًا، وشعر أنه في حالة سيئة. سمع بكاء المـرأة التـي كـان يعشقها بطريقته المُخيفة. تصالحا عندما بزغ الفجر. تـضاجعا بلهفـة كبـيرة عـلى مكتب "بتر"، ثم ناما على سرير المستشفى، وكـل مـنهما يـضُم الآخـر بقـوة، وقـد التحفا بمعطف الطبيب الأبيض.

⦿⦿⦿

الآن، يـسير الأصـدقاء الأربعـة عـبر ممـر ضـيق مُتعـرج عنـد سـفح الجبـل، كـل مـنهم يحمـل حياتـه في داخلـه، وكـل مـنهم ينظـر نظـرة مُختلفة إلى الوادي الممتد على عمق كبـير أسـفل مـنهم، المنحـوت في كتـل

من الحجر الجيري بفعل التيار الجليدي للنهر. كان النهر صافيًا، ولونه يميـل قلـيلًا إلى الخضرة كلون المُطهر الطبي. عندما وقفت "آنًّا" ذات صباح على أحد الجـسور الصغيرة في الوادي، وأخذت تراقب تيار الماء، بدا لها أنه يشع كالفسفور.

والآن، بعد أن أصبح الجميع يقف على القمَّة التي تربط بـين الجبلـين، نظـروا بحـرص إلى العمـق الموجـود أسـفلهم، وكتمـوا أنفاسـهم مـن الدهـشة، فقـد بـدا للحظات كأن "لينكا" تُشع هي أيضًا.

قالت "لينكا" بطبيعيتها المُذهلة، وهي تنظر إلى الوادي:

- ياللجَمَال.

أومأ "بتر" بهدوء. كان تفكيره في مكـان آخـر. في "لينكـا". الجَـمَال، أخـذ يُكـرر هذه الكلمة في نفسه حتى فقدت معناها.

أومأت "آنا" كذلك، فهي ترى أيضًا هـذه المـساحات الـشاسعة الممتـدة تحتهم ومن حولهم، وقد قيمهـا عقلهـا المكبـل بزاويـة الرؤيـة الـسليمة – بالهندسة الدقيقة للمدينة – بأنها جميلـة. تـذكَّرت أباهـا، وأخـذت تُفكِّـر في كل الـصخور التـي توجـد تحـت قـدميها، في كـل المعـادن التـي تـذوب في ينابيع المياه الجوفية، ثم تـصعد عـلى الـسطح، رأت كيـف تـشرب منهـا الظباء والطيـور بعـدما اختلطـت بالمـاء، وكيـف أنهـا أصبحـت جـزءًا مـن

أجسادها، من عظامها، وتسافر في مجري دمها، وتتغذى على جهازها العـصبي. رأت كيف يتحلل جسد الحيوان، فتعود المعادن مرَّة أخرى إلى الـصخور، وتتكـرر الـدورة من مكان بدايتها.

فجأة قال "أوندرشي" وكأنه يحلم:

- شيء رومانسي.

كأنه لا يتحدث عن المشهد، ولكـن ينطـق ببيـان رسـمي يُلخـص حياتـه كلهـا. هناك شيء ثار على الفور داخل "آنَّا".

وفجأة وكأنها مُتعمدة تذكَّرت "يوهان فينكلمان" (في نهاية المطاف درسـت تاريخ الفن). كان "يوهان فينكلمان" مُحبًّا للجمال، وعندما نظر قبل ما يقـرب من مئتين وخمسين عامًا إلى منظر جبال الألب، تقيَّأ من القرف. نعـم بالفعـل، فقـد كـان "فيـنكلمان" رجـلًا ذا ذوق رفيـع، وميـل للتنـاغم، رجـلًا مـن العـالم القديم، حيث كان الناس فيه يرون مـا يحـدث أمـامهم حقًّـا. كـان طبيعيًّـا أن يـرى هـذه الفـوضى الحجريـة، وتـشابك الغـلاف الـصخري لـلأرض عـلى أنهـا أشـياء مقـززة. أخـذت "آنَّـا" تُفكِّـر في هـذا الرجـل المُحـب للجـمال وهـو يتقيَّأ، وبينما كانت تقـف، وتتـنفس، وتنظـر إلى التيـار الفـسفوري في الـوادي، بدت لها الجبال فجأة قبيحة حقًّا. تحوَّلت المساحة الهائلة - التي تنظر إليها - إلى دوامـة، بـل إنهـا بـدأت تـشعر بـشيء مـا بـدأ يُـشبه نوبـة مـن الغـضب.

سيطرت على غضبها، لكنها بعد ذلك أدركت أن صبَّ الغضب على المنظر الطبيعي هو شيء سخيف وإحساس مجنون. في هذه اللحظة صار واضحًا بالنسبة لها إلى أين يتجه هذا الغضب.

كان "أوندرشي" الذي يقف هنا فوق الجرف بعينين نصف مفتوحتين ويغمرها بخجله، كأنه مُحاكاة ساخرة للرسام الألماني "كاسبر ديفيد فريدريش". عاد الطفل ليحول بينهما مرَّة أخرى. إنها لم تتذكَّر "كاسبر فريدريش" صدفة. فقد رأت صورة للوحته "مُتشرد فوق بحر الضباب" صباح اليوم في بهو الفندق الذي يقيمون به. كانت تنتظر الآخرين الذين تأخروا في تناول طعام الإفطار، أخذت تتأمل صورة "فريدريش"، وقد رافقت ذلك موسيقى صادرة عن جهاز التلفزيون المُعلق على الحائط فوق مكتب الاستقبال. كانت هناك أغنية في التلفزيون المحاط بحلقة من أصحاب المعاشات الذين يهزُّون رؤوسهم بخجل وبتجمد مع إيقاع الطبول المصطنعة، الأغنية عن طائر الوقواق والحب الأبدي.

عندما نظرت "آنَّا" إلى "أوندرشي" المنحني بسعادة ليُطل على هذا الجرف السحيق، سمعت هذه الأغنية البشعة تتردد في رأسها، مما جعلها في حالة سيئة. وذلك لأنها لا تُريد أن تُشوِّه صورة "أوندرشي" أكثر من هذا، فحاولت أن توجه غضبها تجاه "لينكا"، التي كانت السبب في كل هذا بجملتها البريئة العفوية عن جمال المنظر، فتحول

"أوندرشي" في عيني "آنًّا" إلى "متشرد فوق بحر الضباب". إلا أن الغضب الموجه إلى "لينكا" المُدرعة بعفويتها ارتد كما ترتد الكهرباء من على "قفص فاراداي"، وعاد مرَّة أخرى إلى "أوندرشي" البريء.. إلى الطفل الكامن في داخله.

لحسن الحظ تغير الجو. أخذ الجميع ينظرون بخوف إلى القمم الجبلية، حيث تجمعت السحب المتفرقة في سحابة أرجوانية متجانسة. بدأ البرق وبعده بلحظة كان صوت الرعد يصم الآذان. سقطت قطرات المطر الأولى بقوة على الأرض. هرولوا عبر الطريق عائدين إلى الوادي. تحوَّل المطر سريعًا إلى سيل. تمكنوا في اللحظة الأخيرة من الاختباء في كشك سياحي صغير. وقفوا مُبتلِّين تحت السقف، بينما يتدفق الماء على أحذيتهم، وتصم أصوات الرعد الهادر آذانهم، والتي يبدو معها وكأن جبال الألب تتصدع من قممها حتى قواعدها. أصبحوا في حالة مزاجية جيدة؛ أخذوا يقصُّون قصصًا مُرعبة، ويشربون النبيذ الساخن الذي كانوا يحملونه معهم في التُّرمُس. بعد ساعة أفرغت العاصفة ما في جعبتها، واختفت سريعًا كما ظهرت. ساروا إلى الأسفل وسط خيوط المياه المتدفقة عبر الممر، وهم يستنشقون رائحة الأوزون. في كل مكان من حولهم يتساقط الماء الناتج عن الأمطار من فوق أشجار الصنوبر المنخفضة، هناك بعيدًا على الجانب الآخر من الجبال ما زال يُسمع صوت الرعد ضعيفًا.

بعد مسافة قصيرة التقوا رجلًا مُسنًّا. كان يجرف بيدين عاريتين الطين اللين المختلط بالرمال من حفرة في الأرض بالقرب من الطريق. في بعض الأحيان كان يستخدم جاروفًا، لكن بحرص. كان يعمل بحماس، ولم يلحظ وجودهم. توقفت "آنَّا"، نظر "أوندرشي" القادم خلفها إلى ذلك، واستمر مع الآخرين في هبوطهم المتزعزع عبر الأحجار الزلقة.

لم تتمكن "آنَّا" من معرفة ما الذي يبحث عنه الرجل في الأرض. برز شيء ما من الحفرة، وأخذ الرجل يُزيل الطين بعناية من حوله. دفعها الفضول لأن تنحرف عن الطريق، وتذهب إليه. بعد قليل لاحظ الرجل وجودها، نظر إليها، وابتسم بوُدٍّ. ألقت "آنَّا" عليه التحية باللغة الألمانية، وظلت تُراقب ما يفعل في صمت، لأنها لم تكن تعرف أي كلمات أخرى بهذه اللغة الأجنبية.

ركع العجوز على ركبتيه، وأمسك بحرص بشيء ما يُشبه جذر الشجرة. أخيرًا، تمكن من تحرير هذا الشيء من الحفرة، أخرج أنبوبًا صلبًا ومُنبعجًا، يصل طوله إلى نصف المتر. تفحصه، ثم نهض بصعوبة (مُتَّكئًا بيده على ركبتيه)، ووضع هذا الشيء بفخر في يد "آنَّا".

قال الرجل بالألمانية بشفتين مُسنتين:

- "بلِتز".

ابتسمت "آنَّا"، وهزَّت كتفيها.

فقال العجوز مُكررًا، وقد لمعت عيناه:

- "بلِتز".

فقالت "آنَّا" مُتسائلة بتردد:

- "بلِتز"؟

وأخذت تزن في يديها هذا الأنبوب الحجري المُنبعج. تفحصته من كل الجوانب. لاحظت أنه مجوف. هزَّت كتفيها مرَّة أخرى.

ضحك الرجل، ونظر إلى السماء قائلًا:

- "بلِتز" "بلِتز".

نظرت "آنَّا" إلى السماء ثم إلى العجوز الذي نفخ خدَّيه، وبدأ يُقلد هبوب العاصفة. رفع يده فوق رأسه ثم تركها لتسقط من أعلى في اتجاه الأرض، ثم وضع إصبعه في الطين اللين، وأخذ يُقلد صوت الرعد.

- "بلِتز".

فقالت "آنَّا" بدهشة بالغة:

- "بلسك"! هذه الكلمة تعني البرق بالتشيكية.

نظرت مرَّة أخرى إلى الأنبوب. برق حجري. أومأ الرجل برأسه بسعادة، ومرَّة أخرى – لكن على الأرجح هذه المرَّة لنفسه – كرَّر الكلمة الوحيدة التي شكَّلت حديثهما كله. تذكَّرت "آنَّا" من جديد والدها. فقد حكى لها في الماضي عن البرق المُتحجر. عن هذه المقذوفات القوية التي تضرب الأرض، فتصهر المعادن المحيطة بها، وتحولها إلى زجاج. إنها تحفر في الطين مسارًا لها. ابتسم الرجل ابتسامة لينة. ابتسمت هي أيضًا، وفي خلال ذلك تقلص الركن الأيسر لشفتيها قليلًا.

وقبل أن تفيق من ذكرياتها، كان العجوز قد أخذ البرق من بين يديها. فتح حقيبة ظهر كبيرة، مسنودة على صخرة قريبة، ووضع الأنبوب في داخلها بين عدة أشياء أخرى مجوفة ومشابهة. بعضها كان فروعًا من شجيرات حجرية منبعجة. لوَّح لها بسعادة مُحييًا، وألقى بالحقيبة على ظهره بحيوية، ومسح يديه في سرواله، وأخرج الجاروف من الطين، وانطلق إلى الجبال. لوَّح كل منهما للآخر، لكن بعد ذلك وقفت "آنَّا" طويلًا، وأخذت تُراقب الرجل، وهو يصعد الصخور بقدميه المعوجَّتين، ويميل بظهره إلى الأمام تحت وطأة حقيبة الظهر الممتلئة بالبرق.

جلسوا جميعًا في المساء في شُرفة الفندق الجبلي، وأخذوا يُشاهدون الصور على شاشة كاميرا "بتر" الرقمية. هناك بقرة في بعض الصور. تذكر الجميع أنهم توقفوا اليوم في مراعٍ جبلية، وصوروا هذه البقرة. في هذه المرَّة قالت "لينكا":

- يا لها من حيوان جميل.

اتفق معها "بتر" و"أوندرشي" في الرأي. فجأة تشككت "آنَّا" في هذا الأمر. للحظات خطرت برأسها فكرة غريبة، وليست مؤكدة إلى حد بعيد، وهي أن "لينكا" لم ترَ بقرة في حياتها. بالتأكيد رأتها في صورة، في التلفزيون، أو في إعلان عن الجبن. بالتأكيد هي و"بتر" أكلا ذات مرَّة هذا الحيوان، أكلا أجزاءً منه، كانا قد اشترياه في كيس بلاستيكي. لكنها لم ترَ أبدًا بقرة حية حقيقية. نظرت "لينكا" إلى هذا "الحيوان الجميل"، وبدا أنها تخافه قليلًا. فقد كانت البقرة أكبر مما توقعت. كانت هذه النتيجة، ولأسباب غير معروفة مُرضية كثيرًا لـ"آنا". فـ"لينكا" أكثر الناس طبيعية لم ترَ بقرة في حياتها.

قطع النادل حديث ذكرياتهم عن البقرة. طلب "بتر"، الذي يتحدث الألمانية بشكل ممتاز، بيرة، ومشروبًا محليًّا بناءً على نصيحة النادل.. ومشروب "روم جبال الألب" الكحولي، الذي يُحمل إلى هنا في براميل صغيرة تجرُّها كلاب "سانت برنارد" المحلية. كان النادل أثناء ذلك

يُشير إلى مشهد قبيح مرسوم على الحائط بألوان مُبهرجة لعمليات الإنقاذ الشتوية.

قال "بتر" بنغمة نصفها حماس، ونصفها سُخرية:

- ممتاز.

لأنه توقع أن النادل يعتبرهم من السائحين الذين يتوقون إلى الأشياء التافهة – وكما تبين بعد قليل (بناءً على ما فعله "بتر") أنهم بالفعل كذلك.

رفضت "آنَّا" ذلك. نظر "بتر" إليها عابسًا ومازحًا في الوقت نفسه، فأشارت للنادي أنها تُريد فقط جرعة صغيرة. أومأ النادل برأسه بطاعة، ومنذ هذه اللحظة اعتبر "آنَّا" و"بتر" رفيقين، بل إنهما كانا يجلسان بجوار بعضهما على المقعد الضيق. عند اختيارهما للأماكن جلس "أوندرشي" من دون مبرر بجوار "لينكا".

إن تصنيفهما إلى أزواج، الذي تم من وجهة نظر النادل، لم يلحظه أي شخص سوى "بتر"، وهنا يكمن جوهر الكارثة المُستقبلية؛ فـ"آنَّا" و"بتر" – الذي اقتنع النادل بوجود علاقة بينهما – كان يجمعهما حقًّا نوع من الاستلطاف. جلس الاثنان بجوار بعضهما، بينما كل منهما يُفكر في رفيقه.

أخذت "آنا" تتحدث مع "لينكا" التـي أصـبحت تراهـا أخـيرًا كإنـسانة بعـد أن كانت تراها مخلوقًا لم يرَ بقرة في حياتـه: تحـدثتا عـن أشـياء غـير جوهريـة، مـن المرجح أنهما تحدثتا مرَّة أخرى عن المنظر الطبيعي، وعن الوادي، وعن الـسياسة، أو عن زواج صديقتهما المشتركة. لم تتابع "آنَّا" إلى أين انتهى الحديث، لكنها كانت تُراقب "أوندرشي" الذي ظل شاردًا يُداعب الـصَدَفة المعلقـة في رقبتـه بحـزام مـن الجلد، بينما عاد الطفل ليُطل من مكان ما في جسده. يُحدِّق من رأسه، ويحلم.

كان "بتر" يتحدث مع "أوندرشي"، ويُفكر في "لينكـا". إن "لينكـا" و"أونـدرشي" يُعدان رفيقين في عيني النادل وفقًا لطريقة الاستبعاد. بدأ "بتر" يشعر بالغيرة على "لينكا". بدأ يشعر بالغيرة من الخطـأ الـذي ارتكبـه النـادل بنـاءً عـلى حركـة مـن حاجب "بتر"، وسنتيمتر الهواء الموجود بين إصبعي "آنَّا"، التي حددت بهما بشكل رومانسي كمية النبيذ الذي ستحضره لها كلاب "سانت برنارد" عبر التلال المحيطة. إذًا، لقـد انـضم النـادل إلى المجموعـة. تـسبَّب في أن يكتـشف "بـتر" بقـرف أن "أوندرشي" و"لينكا" يُشكلان - بـصورة سـلبية وبـلا ذنـب ارتكبـاه - زوجًـا جمـيلًا وطبيعيًّا (فدائمًا ما كان بينهما نـوع مـن الاسـتلطاف)، وبـدأ بـأثر رجعـي يُحـاول حـل مُعادلتـه التـي تتكـون مـن عنـاصر مجهولـة. عـلى الـرغم مـن أنـه حـاول ظاهريًّا أن يُحافظ عـلى روحـه المرحـة، ويحـكي حكايـات مـن عيادتـه، حكايـات

الناس الذين يستيقظون ليلًا بسبب رغبتهم في حكّ العضو المبتور من أطرافهم، فيقومون وهم في حالة من النعاس بحك الهواء. طلب كأسًا أخرى من مشروب الروم، كما أمسك عدة مرّات بصورة لا إرادية برُكبة "آنّا" الجالسة بجواره.

في البداية شعرت "آنّا" برعشة في جسدها، ثم بتيار رقيق من الإثارة الجنسية يتدفق إليها من مكان مجهول وغامض، لكنها تخلّصت سريعًا من هذه الموجة، وفسّرت الموقف بأنه نوع من التعود يأتي بشكل لا شعوري من جانب الأصدقاء كنوع من رقة التعامل، مجرد خطأ. إنها الذاكرة الفسيولوجية لـ"بتر" المعتاد على التوجه إلى المكان الذي توجد به في العادة رُكبة "لينكا". في الحقيقة، لقد بدأ "بتر" خلسة في شحذ كل قواه لكي ينتقم.. لقد أراد - من دون حتى أن يعي ذلك - أن ينتقم من "لينكا" على خيانتها التي لم ترتكبها، أراد أن يزرع في "لينكا" بذور الغيرة، لكنه لم ينجح في عملية الثأر هذه، فـ"لينكا" لم تلحظ شيئًا مما فعله، فقد كانت مُنشغلة للغاية بـ"كاسبر ديفيد فريدريش"، وبوصفة ما لصنع الكيك، وبالأزمة البيئية، أو بأي شيء آخر أخبرتها به "آنّا" في لحظات التوتر أو في اللحظات العادية.

لقد أثّرت محاولة "بتر" للثأر بشكل غير متوقع على "أوندرشي"، الذي لاحظ لمس "بتر" لرُكبة "آنّا"، ففزع فزعًا كبيرًا. كما لو كان

أحد قد تحرَّش بوالدته أمامـه. أصـابه مـا حـدث في مقتـل، نهـض، وفي حالـة مـن الارتباك توجه إلى دورات المياه. أظهر استياءه لـ"آنَّا". فقد أراد قبل أن ينصرف أن يُرسل إليها إشارة بوجهـه. ولأن "أونـدرشي" نفـسه لم يكـن يفهـم في هـذه الغابـة العتيقة من الإيماءات التي يُرسلها بوجهه، فقد نتج عن ذلـك شيء غـير مُقنـع إلى حد بعيد، وقد اعتبرت "آنَّا" أن الإشارة التي أرسلها "أونـدرشي" بوجهـه هـي نـوع من تفاخر الشباب، ولم تفهمهـا. مـرَّة أخـرى دوَّى بـداخلها صـدى هـذا الغـضب القديم المـألوف. سـمعت "آنَّـا" صـوت غنـاء متقطـع يـصدح في رأسـها، وشـعرت بالطفل وقد وقف محشورًا في حلقها. انعكس هذا على حديثها مع "لينكـا"، فقـد توقفت تمامًا عن استكمال الحديث، الذي انتهى بعد لحظات بشكل محرج.

خلال ذلك ظهر على الطاولة كأس أخرى من شراب الروم. كان "بتر" يحكي عن لون الأنهار في الوادي، ومن جديد، وبشكل لا إرادي أمسك بركبة "آنَّا". هذه المرَّة أيضًا لم تلحظ "لينكا" شيئًا، بل كانت منزعجة من أن "آنَّا" لا تعتبرها ذكية بدرجة كافية لكي تُقيم معها حديثًا جادًّا عـن فطـيرة التفـاح، أو عـن الرَّسـامين، أو عن الاقتراب من كارثة عالمية وشيكة. بدأت تشعر بحاجـة مُلحَّـة لـشخص تناقش معه مشاكلها الحياتية بعمق. بالطبع، كـان "أونـدرشي" العائـد مـن دورة المياه هو من لاحظ هذه الإيماءات. فأشعلت عجزه في داخله. تحدث مـرَّة أخـرى بإيمـاءات وجهـه، لكـن بطريقـة سـيئة. بـدأت "آنَّـا" تتحـدث

مع "بتر". كان يومئ لها بوُدٍّ من الظاهر، بينما باطنه يغلي، ونظره مُثبت على "لينكا" التي بدأت تُفضي لـ"أوندرشي" بمكنون صدرها، وصار صوتها بعد كل ما احتسته من نبيذ "سانت برنارد" أكثر عذوبة، وحركاتها أكثر نعومة، وعيناها أكثر انكسارًا، وبدأ يُشع منها شيء ما مثير للشهوة بقوة. لكن على الرغم من كل هذه الإثارة الجنسية فإن "أوندرشي" كان مُحصنًا كالطفل (وماذا غير ذلك)، كان يفكر في اتجاه مُختلف تمامًا، فكل شهوانيته الحاضرة هنا كانت تهدف إلى أن تُشعل في "بتر" كراهية عيار أربعة وعشرين.

فجأة، جاء النادل إلى الطاولة، وسألهم إذا ما كانوا يرغبون في شيء آخر، وأخذ يمسح الفتات من على الطاولة. ثم حدثت الأزمة. في حركة بائسة جاء كُم النادل على كأس "أوندرشي" فأسقطه، وانسكب النبيذ على بنطلون "لينكا"، ثم فجأة تتابع كل شيء كالبرق كخيط جُذب بطريق الخطأ. نهض "أوندرشي"، همس النادل:

- آسف.

وأمسك بوجهه. غادر "أوندرشي" الشُّرفة بخطوات مُسرعة. شعروا وكأنهم يسمعون وسط هذا الصمت الذي لفَّ المكان صوت الدم المُتجلط أسفل جلد الخد الأيسر للنادل، الذي تلقى للتَّوِّ صفعة من "أوندرشي".

حدثت حركة مُضطربة. اعتذارات، ارتباك ثنائي اللغة، ضم للأكتاف، بقشيش ضخم.. لحُسن الحظ أن "لينكا" كانت موجودة بسحرها الطبيعي.

سار "أوندرشي" بجانب التل عبر ممر غير مميز تملؤه آثار حوافر الحيوانات البرية. لحقت به "آنَّا" ركضًا، وأمسكت بمرفقه، وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة. أفلت "أوندرشي" منها، وتابع السير. سارا صامتين لفترة طويلة، تتعثَّر أقدامهما في الممر الصخري، وتفصل بينهما مسافة عشرة أمتار. بدأت السماء تُظلم. حاولت "آنَّا" من جديد أن توقف "أوندرشي"، لكنه لم يُلقِ لها بالًا، وتابع سيره إلى المنحدرات الحادَّة التي تقف شاهقة أمامهما. أخفقت الكلمات. نظرت "آنَّا" إلى السماء المظلمة، حيث كان يُحلق بها في صمت ظلان لغرابين، بينما بدأت تظهر النجوم الأولى في الجانب الشرقي. فجأة، بدأ الغضب يتملَّكها. أظلم كل شيء في داخلها. لحقت بـ"أوندرشي" - لم تكن تدري ماذا تفعل، ولكن لا يمكنك أن تهزم الطفل إلا إذا تعاملت معه بطفولة - قامت بعرقلته.

ارتضهم "أوندرشي" بالأرض، وزحف لعدة أمتار على المنحدر، رفع جسمه قليلًا، وظل جاثيًا على أربع، ويُحدِّق، لا يستطيع التقاط أنفاسه. حركة غير متوقعة، كانت "آنَّا" تحاول جاهدة أن تهزم الطفل المُشوَّش والمُستاء الكامن داخل "أوندرشي". ركضت مُرتبكة

إلى أسفل، وهي تقول شيئًا ما، قليل مـن الاعتـذار المُغلـف بالـضحك. وصـلت إلى "أوندرشي"، وأرادت أن تُساعده ليقف على قدميه. التقط "أوندرشي" أنفاسه، لكن المؤكد أن الطفل قد غادره. نهض، واقترب من "آنَّا"، وأمـسك يـدها بقـوة لدرجـة جعلت عينيها تغرورقان بالدموع، لم تقل شيئًا، فقط تراجعت من الخوف خطـوة إلى الوراء. وقفا للحظات، انتظرا، التقطت "آنَّا" أنفاسها؛ كان يُسمع من مكـان مـا صوت صخري أجوف لجدول ماء جبلي، بينما حفيف أجنحة الغربان التـي تُحلـق عاليًا فوق رأسيهما يُشبه صوت كرة الريشة. ضمت أجنحتهـا، وصـعدت إلى كتلـة هوائية أعلى. جذب "أوندرشي" "آنَّا" إليه مرَّة أخرى، وثنى ذراعهـا خلـف ظهرهـا حتى صرخت، انتشر هذا الألم في جسدها كله. الآن تقف وظهرها إلى "أونـدرشي"، الذي قام بضمها إليـه ضـمة قويـة، نـزع عنهـا قميـصها، فظهـر جـسمها الأبـيض كالإوزة، ظهرها، بروز عظامها. شعرت "آنَّا" على الفـور بالإثـارة، نـزلا عـلى الأرض، انزلقا قليلًا عبر المنحدر. ألصقها بالأرض، فجأة ظهرت رجولتـه، عـضلات، مفاصـل بيضاء، ضغط عليها، أمسك بها من أسفل الرقبة، أمسك بها لدرجة أنها لم تـتمكن من الحركة، لم تتمكن من التفكير. أمسك بها تحت وطأة اللذَّة، صرخت، تحركـت عدستا عينيها في نصف دائرة، واستقرتا في مكان ما تحت جفنيها.



عـادا إلى الفنـدق في الظـلام. سـتر الليـل الكـدمات والـسحجات الموجـودة بجسديهما. تسلَّلا إلى الشرفة، وجلسا مع الآخرين، وكأن شيئًا لم يحدث. كان "بتر" السكران حتى الثمالة ينام أسفل الطاولة في أحضان كلب "برنـارد" هائـل الحجـم. أمَّا "لينكا" فتجلس بجوار النادل، وبثقة تتناول معه بالتحليل حياتها الخاصة. بدتا عينا النادل مريضتين. كان وجهه شاحبًا، ويـرتعش مـن رأسـه إلى أخمـص قدميـه، على ما يبدو فإن آلة الحب التي لا ترحم بدأت تعمل في داخله. كـان يميـل رغـمًا عنه ناحية "لينكا" كأن هناك مغناطيسًا عملاقًا يجذبه، وكان من حين لآخر وسـط الحديث يضع يده بصورة لا شعورية على ركبة "لينكا"، فتظهر مُعاناته.

كان "بتر" يشخر أسفل الطاولة. عطس كلب "برنارد" فأطلق على بلاط الـشُّرفة خيطًا طويلًا من لُعابه. هنـاك في مكـان مـا في أعـماق الـوادي ينهمـر عـلى وتـيرة واحدة تيار النهر الجبلي، تيار نظيف كأدوات الجراحة. كان الجميع يجلسون هنا في برودة الليل، وبعد قليل توقفت "لينكـا" عـمَّا كانـت تهمـس بـه، إلا أن عينـي النادل المحمومتين ما زالتا تُفضيان إلى "لينكـا" بحـديثهما الزجـاجي البـارد. أحسَّت "آنَّا" بالبرد. فقد شعرت بوجود بلـورة الـثلج التـي ابتلعتهـا صـباح اليوم بداخلها. إن الطفل الذي كان بداخل "أونـدرشي" بـالقطع قـد انتقـل إليها أثناء مضاجعتهما بين الرواسب والـصخور، سـيولد بعـد تـسعة أشـهر، سيحـصل مــن والــده عــلى صــدفة صــغيرة مُعلقــة في طــوق مــن الجلــد،

ومبكرًا جدًّا ستظهر عنده هذه الرَّعشة الخفيفة في شفتيه، والتي تهاجمه في اللحظات التي يرغب فيها بالبوح بشيء ما، لكنه يكبته بداخله، وكذلك هذه التجعيدة الصغيرة بين الحاجبين التي تظهر عند التفكير في شيء ما. سيمرض بضغط الدم المنخفض، ويعاني بشكل مستمر من تجمد قدميه ويديه، وعندما يكبر ستحكي له "آنَّا" أنه مُتصل بخيط - أو بضربة برق - بالكون كله الذي هبط إليه عبر بلورة ثلج واحدة.

ستُدرك "لينكا" بعد فترة قصيرة من العودة من الجبال أنها تعاني مع "بتر"، فتتركه. وتبدأ في العيش مع النادل الذي ستُحبه حُبًّا شديدًا، لكن وبسرعة كبيرة ستكبر في داخله آلة الغيرة البشعة نفسها، والتي سيبدأ النادل في تعذيبها بها بصورة أكثر قسوة من "بتر".

سيظل "بتر" طوال حياته يستيقظ من دون "لينكا"، كأنهم قد استأصلوا أحد أطرافه، سيؤلمه الفراغ الذي تركته. سيمد يده في الظلام إلى المكان الخالي بجواره ليُحاول أن يحك الهواء. سيشعر كثيرًا بأنه تغلب على هذا الأمر، وأنه تركه وراء ظهره، لكن جسده سيظل يُفكِّر نيابة عنه. سيخضع لنوع ما من العلاج، سيتزوج، وبسرعة شديدة سيكون أسرة، ويبدأ في الاستمتاع بالحياة. منذ ذلك الوقت لن يسمع عنه أحد شيئًا أبدًا.

كل هذا مرَّ أمامهم، الآن هم يجلسون تحت النجوم في هـذه الليلـة الجميلـة الصافية، حتى "بتر" قد استيقظ من نومه. خمـسة أشـخاص بالإضـافة إلى الطفـل الذي بدأ ينبض تحت قلب "آنَّا"، ستة أضـلاع لبلـورة الـثلج. جلـسوا، واستنـشقوا عبق الجبال الليلية، التـصقوا ببعـضهم في هـذا الـبرد المُتـصاعد مـن النهـر. كـانوا سُعداء على طريقتهم عـلى الـرغم مـن غرابتهـا. سـاد صـمت مُطلـق. أمَّـا هـؤلاء الحالمون المنكبون على زجاج مُختبر حياتهم، فأخذوا يراقبـون المعـدن وهـو ينمـو ببطء خلف الشرخ الثلجي الضعيف.



صدر من سلسلة كتب مختلفة:

.1	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.2	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.3	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.5	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
.6	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.7	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
.8	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.9	حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
.10	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.11	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.12	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.13	جريمة الساحر	أرني ثوراربنسون	أيسلندا
.14	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.15	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.16	حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.17	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.18	بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
.19	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.20	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.21	الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
.22	أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.23	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.24	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.25	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.26	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.27	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
.28	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
.29	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.30	توباز	هاكان جنيد	تركيا

31. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
32. جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
33. جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
34. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
35. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
36. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
37. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
38. لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
39. مينتا	سولماز كاموران	تركيا
40. نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
41. سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
42. جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
43. معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
44. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
45. حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
46. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
47. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
48. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
49. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
50. احذري يا آنا	ماريك سينديلكا	التشيك
51. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
52. العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
53. رسائل سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي
54. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
55. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
56. الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
57. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
58. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
59. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
60. بنات الصين	يي مِاي	الصين
61. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
62. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
63. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين

.64	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
.65	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
.66	الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
.67	المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
.68	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
.69	التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
.70	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
.71	صلوات ليلية	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
.72	صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
.73	القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
.74	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
.75	قصص خيالية	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
.76	د. مينجوس.. الأخ الأكبر	خيسوس ريكاردو فيلكس	المكسيك
.77	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
.78	صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج
.79	سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
.80	حرية حزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا
.81	دكّان الساري	روبا باجوا	الهند
.82	جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
.83	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
.84	المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
.85	تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
.86	عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا

صدر من كتب عامَّة:

87. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
88. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
89. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
90. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
91. الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
92. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
93. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
94. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
95. مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
96. زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
97. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
98. الذكاء الأخضر	ستيفانو مانكوسو	إيطاليا
99. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
100. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
101. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
102. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
103. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
104. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
105. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
106. الجري	ثور جوتاس	النرويج
107. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
108. اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

العنوان	المؤلف	البلد
109. شرخ في الحائط	كلاوديا بينييرو	الأرجنتين
110. علاقات دولية	إلييت أليكا	ألبانيا
111. الأسئلة	أنطونيو زيرزينسكي	البرازيل
112. شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
113. في حب بابلو وكراهية إسكوبار	فيرجينا فالاجيو	أسبانيا
114. اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
115. ردًا على خطاب من هيلجا	بيرجيسفين بيرجيسون	أيسلندا
116. الفخ	ليليا سيجورثاردوتير	أيسلندا
117. الحب في زمن الاحتباس الحراري	جوزيف بانيك	التشيك
118. ذكرى سوداء	ألبير كانيجوز	تركيا
119. المزيد	هاكان جونداي	تركيا
120. بال خالٍ	أولجا سلافينكوفا	روسيا
121. يوغوسلافيا وطني	جوران فوجنوفيتش	سلوفينيا
122. جدتي وبريتني سبيرز	لونا الموصلي	سويسرا

العنوان	المؤلف	البلد
123. دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
124. الأخ الأكبر	ماهر جوفين	فرنسا
125. تكوين الملح	ماجيلا بودوين	فنزويلا
126. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
127. يوم هنا ويوم هناك	أجيولار كامين	المكسيك
128. روميو جولييت في البلقان	ديان ترايكوسكي	مقدونيا
129. فرق توقيت	ألموت تينا شميت	النمسا
130. لا سوبيربا	إليا ليونارد	هولندا
131. أفكار سيئة	لويد ميرخام	ويلز

#كتب_مختلفة #التشيك

"عندما أُكمل العد إلى ثلاثة، ستتوقف عن كونك إنسانًا"

جميعنا بشر تائهون في هذه الدنيا. بعضنا يتجول فيها بدون هدف، والبعض الآخر يتجوَّل باحثًا عن ذاته وعن هدف لحياته. وفي المنتصف نلتقي جميعًا في وقتٍ ما أو في لحظة عابرة.

أبطال هذه الرواية متفرقون لا يربطهم سوى خيط لا يكاد يُرى.. أبطال يدور الكون كله في عروقهم.

قيل عنها إنها "ليست فقط مجموعة متفرقة من القصص عن أفراد متفرقين، بل هي عبارة عن حكاية متصلة عن الحياة".

ووُصِف أسلوب الكاتب فيها بأنه: "نجح في تصوير حالات شخصياته العقلية ووضعها على الورق في شكل كلمات، ثم زيَّنها بصور أدبية للوجود البشري".



ماريك شينديلكا

دَرَس كتابة السيناريو بأكاديمية الأفلام وتخصص في الدراسات الثقافية بجامعة "تشارلز" ببراج. أول ما نُشِر له كانت مجموعة قصائد شعرية عام 2005 تحت عنوان "الإستركنين وقصائد أخرى"، وفازت هذه المجموعة بجائزة "جيري أورتن" الرفيعة. بعدها، صدرت له أربع روايات منهم: "المنحرف" عام 2008، و"تعب مادي" عام 2011، وحصلت روايته هذه "احذري يا آنَّا" على جائزة "ماجنيزيا ليترا للرواية"عام ٢٠١٥.



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة

ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

ISBN 978-977-319-476-5

9 789773 194765 >




WWW.alarabipublishing.com.eg



تصميم الغلاف: جورج لطيف